
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَلَّمَةٌ

من أهم الحقائق المفترضة في صراعنا مع الجاهلية .. أنه صراع اجتماعي .. قائم بين واقع إسلامي .. وواقع جاهلي. وافترض هذه الحقيقة ، يحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة الاجتماعية في كل مراحل الصراع ..

من لحظة الاستضعاف .. إلى فرصة التمكين .. ووقت الامتداد. والدخول بالأسرة المسلمة في مجال الصراع -باعتبارها الواقع الاجتماعي للفرد الداعية- هو الوسيلة الأساسية لتحقيق الصفة الاجتماعية لواقع الدعوة في هذا الصراع. وهذه الرسالة تتضمن التصور الحركي الذي تتكون به الأسرة، والحسابات الدقيقة التي تدخل بها - بعد تكوينها بهذا التصور - في واقع الدعوة.

ومن هنا، لم تكن هذه الرسالة دراسة اجتماعية أخلاقية عامة، بل دراسة حركية محددة، تبدأ بتقييم واقعي للفوضى الجنسية، باعتبارها نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، وباعتبارها العقبة الأساسية لعودة هذه المجتمعات الجاهلية إلى الإسلام. والخروج من خلال هذا التقييم بضرورة ارتباط الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف، وضرورة تكوين البيت لتحقيق هذا الارتباط، وبحث آثار هذا التكوين في الفكر والحركة، ثم عرض إمكانية وأسباب حماية البيت بعد تأكيد قيمته في واقع الدعوة، وكذلك حماية الدعاة من البيت؛ لتفادي خطر الرضا به دون الجهاد في سبيل الله.

وبذلك تدخل الأسرة في مجال الصراع، ويأخذ البيت وضعه في اتجاه الحركة، وتدخل معها المشاعر والغرائز في طاقة التحرك، وتتضمن فيها الزوجة إلى دوافع العمل،

وتتحول بها الذرية إلى إمكانية امتداد بشري للدعوة ؛ فيتحقق التجرد والتحرر والانطلاق الحركي، مع الارتباط الأسري والالتزام الاجتماعي والاحتياج المعيشي.
كما تنشأ في بيت الدعوة الحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ .. بمقياس الدعوة .. في حياة الدعاة ..

مثل الحد بين زينة الله التي أخرج لعباده، والترف المحظور ..
وبين السكن إلى الزوجة، والركون إليها ..
وبين السعي المشروع للرزق، والانشغال المنهي عنه بالمال ..
وبين الحب الفطري للذرية، والافتتان بها.
كما يتحدد في بيت الدعوة .. الحد بين ممارسة الدعوة كهواية لا تتعدى حدود الميول الشخصية، وبين أن تكون الدعوة رسالة، لها حياة الدعاة واستشهادهم ..
وسنرى في هذه الرسالة حياة الكفاح منبعاً للحب لا يجف بين الزوجين ..
فالحياة في بيت الدعوة:

إما لحظة وداع وأمل ..

أو لحظة حنين وشوق ..

أو لحظة لقاء وفرحة ..

فهي حياة طيبة .. وعيشة راضية .. وعمر مبارك .. ووقت مليء ..
وفى نهاية الرسالة ندعو أنفسنا إلى زيارة بيت من بيوت الدعوة في عهد النبي ﷺ ..
لنعيش هذه الأفكار وتلك المعاني .. واقعا محققاً .. وحقائق واقعة.

لتعلم كل صاحبة بيت للدعوة بتلك الزيارة ..
أنها واقفة بالتزامها على خط الدفاع الأول عن الدعوة ..
وأن موقفها يمثل نقطة الارتكاز في دائرة الامتداد ..
وأن نسيج ثيابها الشرعي هو نسيج الراية الإسلامية في هذا الصراع.
وهو بيت (الرميصاء) .. نموذجاً حقيقياً لبيت الدعوة ..
الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا مجتمعاً كاملاً وحياة دائمة.

دفاعي سرور

البداية

نريد في البداية أن نعطي تقييماً حركياً لواقع الفوضى الجنسية، ذلك أن هذا التقييم هو أول ضرورات التغيير، لأن مجرد التعريف النظري لتلك الفوضى، والدعوة الكلامية في محاربتها، لا تكفي للقضاء عليها، أو تحقيق أدنى تأثير فيها، طالما أن الدعوة الإسلامية تتفقد المخطط العملي بإمكانياته اللازمة لإنهاء هذا الواقع.

وهناك حقيقة تفاجئنا من خلال هذا التقييم، وهي أن جاهلية الجنس كانت نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، ونجد ذلك في قول الرسول ﷺ :

(اتقوا الدنيا .. واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء)^(١).

والفكرة التي في الحديث: أن فتنة النساء كانت الفتنة الأولى في مجتمع بنى إسرائيل، ومعنى الفتنة الأولى، أنها كانت بداية الانحراف ونقطة التحول ؛ ولذلك فإن فتنة النساء تمثل عند إبليس -وهو الأمر بالفحشاء ومنشئ الفوضى وصاحب الجاهلية- الهدف الأول والأساسي الذي يسعى إلى تحقيقه في واقع الناس، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه النبي ﷺ :

(إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: «فعلت كذا» ، فيقول : «ما صنعت شيئاً» ، ثم يجيء أحدهم فيقول: «ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته»؛ فيدنيه منه، ويقول: «نعم أنت»)^(٢).

وهذا هو العنصر الأول من عناصر الخطر في الفوضى الجنسية، يتبعه عنصر السرعة في انتشار تلك الفوضى، والذي يتحقق بالإصرار على الانحراف في نفس المنحرف، بقوة تتعدى غريزة حب الحياة وكراهية الموت في النفس البشرية.

وهذا موقف يوضح لنا كيف تكون قوة الشهوة والإصرار على الانحراف، وذلك في قصة

(١) أخرجه مسلم في (الرقاق) (١٧/٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري وهو ما انفرد به دون البخاري.

(٢) أخرجه مسلم - أيضاً - (صفات المنافقين) (١٧/١٥٧) من حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه.

هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر، عندما كانت معه زوجته سارة، وكان في مصر ملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، علم بقدوم سارة فطلبها، فلما جاءت أمامه دعت الله أن ينجيها منه فخسف الله به الأرض، ولكنه بعد ذلك الخسف يحاول مرة أخرى!، فيخسف الله به الأرض، فيحاول مرة ثالثة^(١).

ولعل الإصرار يكون واضحاً من خلال المحاولة ثلاث مرات على الرغم من الخسف. وهذا الموقف وإن لم يتكرر بهذه الصورة، لكنه يوضح عنصر الإصرار على الانحراف بصورة مباشرة وواضحة، وهذه هي طبيعة الانحراف في أي موقف.

والذي يحقق سرعة انتشار الانحراف بعد قوة الشهوة هو ضعف الغيرة في نفس المنحرف؛ ولذلك فإن النبي ﷺ يربط بين الاستقامة والغيرة ربطاً مباشراً، إذ يأتيه شاب ويقول له: يا رسول الله! أريد أن أزني، فيقول له: أترضاه لأمك؟، فيقول: لا، فيقول له ﷺ: (وكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم)^(٢).

وبضعف الغيرة .. تكون السلبية في مواجهة الانحراف، والتي تتحول بالإنسان السلبي إلى موقف المنحرف، ولذلك تحول موقف امرأة العزيز. حينما راودت يوسف عن نفسه - إلى موقف عام للنسوة بمجرد أن أرسلت إليهن وأعلنت رغبتها في يوسف عليهن، فعذرنها، فاعتبر يوسف هذا الموقف دعوة منهن جميعاً ..

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٢٣)

وهذا معناه أن السلبية في مواجهة الانحراف تعتبر بذاتها دعوة إلى الانحراف.

وبقوة الشهوة وضعف الغيرة تتحقق نهائية معدل انتشار الانحراف الجنسي، التي تتم عندما لا يكون في المجتمع أي قيمة أخلاقية، مثلما كان لوط يبحث في قومه عن رجل رشيد فقال: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود: ٧٨) .. ولم يجد.

ونهاية معدل الانتشار تتحقق بطبيعة المجتمع المنحرف ذاته مع طبيعة الانحراف؛ لأن المجتمع المنحرف لا يقبل -بطبيعته- وجود أي قيمة أخلاقية فيه؛ فيكون الرفض الجاهلي للأخلاق بعدة احتمالات:

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٦/٣٨٨) من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٥٦ - ٥/٢٥٧)، والطبراني (٨/١٩٠) من حديث أبي أمامة، وجوده العراقي في الإحياء (٧/٢٣٦)، وقال الهيثمي (١/١٢٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله الصحيح. وصحح الألباني هذا الإسناد لغير هذا المتن انظر صحيح الترمذي (١٩٢٢) (٢/٢٧٦).

الأول: إما أن يُخرج المجتمع أصحاب تلك القيمة منه، مثلما حاول قوم لوط عندما قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢) .

الثاني: وإما أن ينحرفوا بأصحاب تلك القيمة مثلما حاول بنو إسرائيل مع العابد، كما جاء في حديث جريج عن أبي هريرة قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وكان في بنو إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلّي فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبيها أو أصلي؟، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى؛ فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلّى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟، قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، من طين.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها ببني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله؛ فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله!، ثم أقبل على ثديها يمصه.

قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه، ثم مر بأمة^(١) يضربونها، ويقولون: يا سارقة.. يا زانية، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه؛ فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها!،

فقالت: لم ذاك؟، فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت.. زנית، وهي لم تفعل^(٢).

ولقد وضع من هذا الحديث كيف أن المرأة البغي حاولت إغراء العابد، فلما فشلت، لم تستطع مواجهة القوم بهذا الفشل، فأتت لهم بغلام من رجل آخر، ورفض المرأة المنحرفة للفشل في إغراء أي إنسان تريد الانحراف به، هو أخطر ما في طبيعة المرأة عندما تتحرف، ويساوى هذا الخطر في طبيعة المرأة عندما تتحرف، رغبته في أن تقع جميع النساء فيما وقعت فيه.

ودليل ذلك قول عثمان بن عفان: (ودت الزانية لو زنى النساء كلهن) (الحسبة لابن تيمية).

(١) أي جارية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في البر والصلة (١٠٦ .. ١٠٧ / ١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو هنا بالمعنى ومختصر.

الثالث: وإما أن يفسر المجتمع الجاهلي القيمة الأخلاقية تفسيراً ينفي حقيقتها، مثلما فعل بنو إسرائيل مع موسى لما رأوه يغتسل بعيداً عنهم ؛ فقالوا: إن به عيباً، ويقول الله - عز وجل - في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وبذلك نرى المجتمع المنحرف يدفع الإنسان المستقيم إلى الانحراف، أو يدفع به خارج واقعة، أو يفسر استقامته تفسيراً ينفي معناها؛ حتى يكون المجتمع خالصاً لانحرافه.

وخطر الانحراف الجنسي بمعدل انتشاره السريع والنهائي يأتي باعتبار أن هذا الانحراف الجنسي هو الخطر الأكبر على الرجال، والرجال هم طاقة الدعوة؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: (ما تركت فتنة أضرب على رجال أمتي من نساءها)^(١). وكذلك يبين الرسول ﷺ أن الزنا جريمة الكيان الإنساني كله، فيقول ﷺ: (العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها اللمس، والقدم تزني وزناها المشي، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه)^(٢).

وبمعنى هذا الحديث يتأكد لنا أن الانحراف الجنسي يستهلك ويهدم الشخصية الإنسانية، ومن هنا كان حد الزنا هو الرجم بمعناه المباشر؛ وهو إنهاء وجود هذا الكيان المنحرف ..

وخطر الجنس باق - أيضاً - باعتبار أنه يتحول إلى طاقة للتحرك بأي قضية باطلة يعتنقها الإنسان المنحرف ..

ومن هنا كانت الغريزة الجنسية هي الطاقة الأساسية للحركة الجاهلية ...
والمثال الذي يؤكد هذه الحقيقة:

هو دفع النساء المشاركات للرجال المشركين لقتال المسلمين في غزوة أحد بقولهن:
إِنْ تَقْبَلُوا نَعَانِقُ وَنَفْرُشَ النَّمَارِقِ أَوْ تُدْبِرُوا نَفَارِقَ فِرَاقٍ غَيْرِ وَامِقٍ
ولنا أن نعلم كذلك معنى الضرر الذي يقصده الرسول ﷺ إذا قمنا بعملية قياس للضغط الجنسي على الإنسان، ولكي نقيس هذا الضغط، نختار العهد الإسلامي الأول، باعتباره الوضع الاجتماعي القياسي لأي وضع اجتماعي آخر ؛ وذلك حتى يكون تقديرنا لهذا

(١) أخرجه مسلم في (الرقاق) (١٧/٥٤) من حديث أسامة بن زيد وسعيد بن زيد مرفوعاً.

(٢) البخاري في (الإستئذان)، (١١/٢٦)، مسلم (١٦/٢٠٥) من حديث ابن عباس.

الضغط مقياساً لتقديرنا للضغط الواقع على الإنسان في أي وقت وأي مجتمع، فهذا رجل يقف مع رسول الله ﷺ في الحج فتأتى امرأة لتسأل الرسول ﷺ فيدفع الرسول ﷺ وجهه الرجل بيده عنها^(١).

ورجل آخر يأتي إلى صلاة الصبح فيقابل امرأة في الطريق فيقبلها^(٢)..

فالأول كان في الحج، والثاني كان آتياً إلى صلاة الصبح ..!

وهذا أبو هريرة يعيش رقيقاً للرسول ﷺ على ملء بطنه، فيشكو إلى رسول الله ﷺ معاناته من الغريزة، ويطلب منه أن يجيز له الاختصاص^(٣)، وتقول الصحابة: لو أذن له لفعلنا..! ^(٤)

ولن يعيش أحد مثلاً كان يعيش أبو هريرة والصحابة في عهد الرسول ﷺ ..

وعلى الرغم من ذلك كانت المعاناة ..

ومن الطبيعي أن يلزم خطر الفوضى الجنسية خطرياً ..

وهو خطر الحب في الواقع الجاهلي باعتباره حقيقة إنسانية مثل حقيقة الجنس، والتقييم الحركي لحقيقة الحب يتحدد في بحث أثر الحب في علاقة الإنسان بالدعوة، وقد أقر النبي ﷺ بالحب كحقيقة واقعة، عندما رأى عبداً يجري وراء جارية وهو يبكي؛ فقال لأبي بكر: (انظر يا أبا بكر!)، ودعا الجارية، فجاءت فقال لها: أتتزوجيه؟ قالت: يا رسول الله أتأمر أم تشفع؟ قال: بل أشفع، قالت: إذن لا أتزوجيه^(٥).

وقد كان هذا الحديث تقريراً من النبي ﷺ لواقع الحب من خلال تعجبه من حال العبد دون إنكار عليه، وطلبه من الجارية أن تتزوجه، وأيضاً من خلال تقريره رفض الجارية للزواج من العبد، ومراعاة مشاعرها على الرغم من رد شفاعته النبي في ذلك.

واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة؛ إنما هو اعتراف مجرد من أي مدلول له في الواقع الجاهلي، وهذا التحفظ في غاية الأهمية، إذ إن الحب في الواقع الجاهلي ما هو إلا ظاهرة من ظواهر الانحراف الجاهلي، وذلك لأن الحب الجاهلي هو إثبات للذات

(١) أخرجه البخاري في (الاستئذان) (١١/٨) في مواضع من صحيحه ومسلم (٩/٩٧) من حديث ابن عباس، والذي كان ينظر غلي وجه المرأة هو: الفضل بن العباس.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٨/٣٥٥) من حديث ابن مسعود.

(٣) حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في النكاح (٩/١١٧) من حديث أبي سلمة عنه رضي الله عنه.

(٤) القائل من الصحابة هو سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وغيرهما انظر البخاري المصدر السابق.

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٩/٤٠٨) من حديث ابن عباس وهو عند أهل السنن أيضاً.

الإنسانية من واقع الفراغ..

لأن الحب بأهم معانيه هو: إثبات للذات الإنسانية ..

والجاهلية بأبرز صفاتها هي: واقع فراغ فكري ووجداني..

وخطورة إثبات الذات من واقع الفراغ على علاقة الإنسان بالدعوة؛ تأتي باعتبارها استهلاكاً للخصائص الطبيعية في الإنسان، والتي تحقق فيه إمكانيات تحمل تكاليف الرسالة، وهي إمكانيات قائمة في كل إنسان، حيث أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان مهياً بتلك الخصائص لأن يكون صاحب رسالة.

ودلائل هذه الإمكانيات هي:

القدرة على الحياة بقضية الرسالة ..

وتصور الوجود من خلال تلك القضية ..

والقدرة على مواجهة أي واقع مخالف لهذا التصور ..

وعندما يحب الإنسان الجاهلي من الفراغ، فإنه بهذا الحب ينطلق نحو من أحبها .. بخصائص الرسالة الكامنة فيه؛ لأنه يعيش بلا قضية.

فتتحول تلك التي أحبها إلى قضيته التي يحيا بها، ويتصور الحياة من خلالها ويسعى إلى الارتباط بها محطماً في سبيل ذلك أي عقبة.

وآثار الحب في الواقع الجاهلي هي الدليل على هذه الظاهرة، فعندما يمارس الجاهلي حباً فإنه يحب إلى حد العبودية، وعندما يفشل في حبه:

- فإما أن يصاب بالجنون بعد طغيان إحساسه بمن أحبها على عقله وواقعة ..

- أو يصاب بالانطواء كصورة من صور الكفر بمبدأ (العلاقة) بعد فشله في علاقته بمن أحبها ..

- أو ينتحر كصورة من صور الرفض لحياته التي كان لا يتصورها إلا من خلال علاقته التي فشلت..

وهذه هي الآثار الخطيرة للحب في الواقع الجاهلي، وبذلك يكون الخطر الحقيقي على الإنسان عندما يمارس حباً جاهلياً؛ هو عجزه تماماً عن أن يكون صاحب رسالة.

واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة، وتجريد هذا الاعتراف من أي مدلول له

في الواقع الجاهلي يقتضي أن نناقش حالة خطيرة في حياة الدعاة، وهي دخول الإنسان في واقع الدعوة وهو يحمل في قلبه حباً قد بدأه في الجاهلية، ولم يتمكن من التخلص منه بعد دخوله واقع الدعوة.

وهذه الحالة لها ثلاث نتائج مؤكدة:

- إما أن تكون هذه المشاعر أساساً للدعوة من الطرف المسلم في علاقة إلى الطرف الآخر للالتزام ..

- وإما أن تكون هذه المشاعر فتنة للطرف المسلم في العلاقة عن دعوته ودينه ..

- وإما أن تنتهي هذه العلاقة وهي النتيجة الثالثة ..

وهذا يعني أن التفكير في إنهاء العلاقة إنما يكون بعد محاولة تحقيق النتيجة الأولى وهي «الدعوة»، وحذراً من الوقوع في النتيجة الثانية وهي «الفتنة».

ونتفق ابتداءً على أن الإيمان الصحيح يحمي صاحبه من الفتنة، ولكن يجب أن نتفق كذلك على أن الأمر يتطلب معالجة وجدانية مباشرة، ذلك أن الإيمان الصحيح يحقق غلبة الالتزام من حيث السلوك، ولكن المشاعر تظل باقية، والدليل على ذلك هو حادثة مرثد الغنوي.

روى الترمذي قال: (كان رجل يقال له مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم إلى المدينة، وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وإنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلي عرفتني، فقالت: مرثد؟، فقلت: مرثد!، فقالت: مرحباً وأهلاً!، هلم فبت عندنا الليلة، قال: فقلت يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، ودخلت الحديقة، فأنتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الأذخر ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! أنكح عناقاً؟ .. أنكح عناقاً؟ .. مرتين، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ

مُشْرِكَةٌ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ (النور: ٣)، فقال رسول الله ﷺ:

(يا مرثد!، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فلا تتكحها) (١).

وواضح من الحادثة كيف أن مرثداً أراد الزواج من المرأة على الرغم من كفرها، وبغائها ومحاولتها جمع الناس لقتله، وكيف ألح في طلبه الزواج منها، وفي هذا دليل على أنه كان متعلقاً بها وجدانياً، ولولا ذلك لما كان هذا موقفه.

ومن هنا تنشأ قيمة المعالجة لمثل هذه الحالة..

وأساس المعالجة الوجدانية المباشرة: هو مواجهة العناصر التي تنشأ من خلالها مشاعر الحب وهي (٢):

* الانبهار بشخصية المحبوب، باعتبار أن الانبهار ينشئ الحب، والحب يضيف على المحبوب أبعاد الكمال الإنساني، ومن هنا صار أمراً معتاداً أن يتخيل المحب في محبوبه صفات الجمال والذكاء والكرم والقوة .. الخ .

- ومواجهة هذا العنصر هي: إظهار العيوب والنقائص وتثبيتها في الذهن. يقول ابن القيم في هذا العنصر: (فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعوه إلى النفرة منه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعاف محاسنه التي تدعوه إلى حبه) .

* الرجاء في قيام العلاقة، فإذا حدث الرجاء بدأت المشاعر، وتقوى هذه المشاعر كلما قوي الرجاء.

- ومواجهة هذا العنصر هي: تهيئة النفس من إمكانية استمرار تلك العلاقة باعتبار الالتزام الشرعي.

* الأسرار باعتبارها وعاء المشاعر، فعندما ينشأ سر بين اثنين، ينشأ اختصاص كل طرف للآخر بسر، ومع هذا الاختصاص .. تنشأ المشاعر.

- ومواجهة هذا العنصر هي: كشف الأسرار التي كانت بين الاثنين أمام أطراف أخرى، وبذلك يفقد الاختصاص الذي بينهما.

* افتراض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبيب، وهو افتراض طبيعي ناشئ عن الحب.

(١) أخرجه النسائي في (النكاح) وأبو داود (٦/ ٤٨)، والترمذي رقم (٣١٧٧) وسنده حسن.

(٢) يمكن الاستفادة في هذا الشأن، بكتاب الطب النبوي للإمام ابن القيم في علاج العشق.

- ومواجهة هذا العنصر هي: تذكر الأضرار التي ستنشأ عن هذا الارتباط، مثل القلق على العرض والشك في السلوك باعتبار عدم الالتزام، وتذكر عاقبة القلق والشك من خبل في العقل وألم في النفس، وحرمان من الراحة، وافترض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبوب، يعني الشعور باستحالة تحقق السعادة مع غيره، ومواجهة ذلك إنما تكون بالارتباط السريع بأخت مسلمة، ويكون من الأولى أن تكون الأخت على قدر من الشخصية والجمال، يحقق رجحان كفتها في نظره؛ لأنه بمجرد تفكيره في الارتباط بها سينشئ في نفسه مقارنة بينها وبين من كان يحبها، ومع هذه الحالة ينشأ واجب الاستعانة بالله لتحقيق النجاة، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهذا هو التحديد الحركي لأثر الحب في علاقة الإنسان - في الواقع الجاهلي - بالدعوة الإسلامية.

وبعد هذا التقييم الحركي للفوضى الجنسية نخرج بحقيقة مهمة وهي: ضرورة ارتباط الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف منذ لحظة التكوين، وحتى قيام الواقع الحركي للدعوة الإسلامية.

وكما فهمنا من التقييم، فإن أي واقع اجتماعي تتسلل إليه الفوضى الجنسية لن يكون له بقاء صحيح..

فلا بد من قيام واقع الدعوة الاجتماعي، وهو يحمل في طبيعته وتكوينه، أسباب حمايته من الانحراف، وهذا هو معنى قيام الحركة بمبدأ العفاف، وهذا هو الذي يضمن أن يكون نمو المجتمع المسلم بعد ذلك مرتبطاً بهذا المبدأ، وهاهي ذي التجربة الإسلامية الأولى تحقق قيام الدعوة بمبدأ العفاف ..

حيث كان العفاف هو أول ثلاثة أشياء أمر بها النبي ﷺ في دعوته إلى الناس، كما قال أبو سفيان: (أمرنا بالصلاة والصدق والعفاف) ^(١) ..

وكانت دعوته إلى العفاف هذه دليلاً على صدق النبوة عند هرقل؛ إذ قال لأبي سفيان رداً على قوله هذا: (لو كان كما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين) ..

(١) قول أبي سفيان أخرجه البخاري في (بدء الوحي) (١/٣١) وهو في مسند أحمد (١/٢٦٢) من حديث ابن عباس.

وكان الأمر بالعفاف في نص البيعة على الإسلام: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تنزوا)^(١). وكان أول أعمال النبي ﷺ في المدينة بعد بناء المسجد هو إقامة حد الزنا على يهوديين بمقتضى حكم التوراة. وكان أول أوامر النبي ﷺ في مكة بعد فتحها هو قوله: (لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)^(٢).

وهذه حجة الوداع اللقاء الأخير العام بين النبي ﷺ وأمتة يقوم فيهم ويوصى وصاياه التي ستعيش معهم، ويعيشون بها من بعده إلى قيام الساعة، يقول: (ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهم عوان عندكم، ليس تملكون منهم شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم: فلا يوطئن فرشكم من تكرهون^(٣)، ولا يؤذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم: أن تحسنوا^(٤) إليهن في كسوتهن وطعامهن).

وواضح من الوصية الأخيرة، أن جوهرها هو قيام علاقة طيبة بين رجال الأمة ونسائها؛ بما يضمن بقاء ارتباط هذه الأمة بالتكوين الأسري الصحيح وتحقيق مبدأ العفاف.

ويتولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين فيقول في أول خطبة له:

(يا أيها الناس، قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوبة الجنة فليزم الجماعة، من سترته حسنته وساءته سيئته، فذلك المؤمن)^(٥) ..

ثم يقول عمر: (لقد مضى رسول الله إلى سبيله فأتوا الحج والعمرة كما أمركم الله ورسوله، واحفظوا فروج النساء)^(٦) ..

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه البخاري في (١/٦٤) ومسلم (١١/٢٢٢).

(٢) البخاري في الحج (٣/٤٨٣) ومسلم في الحج (٩/١١٥) أيضاً من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم، انظر شرح النووي من صحيح مسلم (١٨٣ - ٨/١٨٤) وهو عند الترمذي رقم (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥) والنسائي في العشرة (٢٧٨).

(٤) ودائماً تأتي صيغة الحض علي إطعام المرأة وكسوتها بالأسلوب الذي يتفق مع طبيعة العلاقة الزوجية مثل قوله ﷺ (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك). فالأمر ليس مجرد الإطعام ولكنه الخنان والرحمة في الإطعام.

(٥) سنده صحيح، أخرجه أحمد في المسند (١/٠١٨) وروي مرسلًا من طريق ابن دينار عن ابن عمر عن عمر موقوفًا، انظر الرسالة للشافعي تحقيق الشيخ شاكر رقم ١١٣١٥١ وأخرجه أيضاً الترمذي ٢١٦٥، والحاكم (١/١١٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) صحيح، أخرجه أحمد (١/١٧) وهو حديث مستقل غير الذي قبله، رواه من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد.

ونقف قليلاً أمام خطبة عمر باعتبار أساسي، وهو أن عمر رائد الامتداد في الدعوة الإسلامية^(١).

ولهذا فإن عرض التصور عند عمر في مواجهة خطر الجنس، يعتبر مقياساً من مقاييس الارتباط بين امتداد الدعوة الإسلامية ومبدأ العفاف، وخطبة عمر الأولى تؤكد قيمة هذا الارتباط من البداية، إذ تقول الكلمة الأولى فيها: (ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما).

فيحذر عمر من الفوضى في العلاقة بين الرجال والنساء، واستغلال الشيطان لتلك الفوضى قبل وصيته بالجماعة، وتحذيره من الفرقة، على الرغم من أن الجماعة هي الأمر الأول الذي يقوم به الإسلام، ولكن عمر كان يعلم ضرورة أن يسبق الوصية بالجماعة وصيته بالعفاف؛ إذ لا جماعة بغير هذا المبدأ.

ولقد كان أعداء الحركة الإسلامية يدركون قيمة ارتباط الدعوة بمبدأ العفاف، فكانوا في خط التضاد مع الحركة الإسلامية، يحاولون الانحراف بالحركة عن هذا المبدأ، ومن هنا كانت حادثة اليهودي الذي حاول أن يكشف ستر امرأة مسلمة^(٢)، فكان ذلك سبب جلاء اليهود - يهود بنى قينقاع - من المدينة.

ولعل هذا الحادث بالذات هو الذي يكشف لنا خطورة الأمر؛ إذ أن السبب قد يبدو في ظاهره ليس مستوجباً لجلاء اليهود، ولكن اليهود يعلمون ما وراء هذا الحدث، ورسول الله ﷺ يعلم ما يريده اليهود فيقرر إجلاءهم، وهي نتيجة قد نرى أنها أكبر من السبب، ولكن بالإدراك الحقيقي لقيمة العفاف في واقع الحركة ندرك أن النتيجة تناسب السبب، وأن جلاء اليهود كان ما يجب أن يكون تجاه هذا التصرف اليهودي.

ولكن القيمة الحقيقية في ارتباط الدعوة بالعفاف، ليست في مجرد البداية أو مرحلة التكوين؛ بل لابد أن يكون هذا الارتباط مستمراً مع مراحل النمو، كما هو واضح في خطبة الوداع من النبي ﷺ وخطبة الإمارة من عمر.

(١) بدليل أن رسول الله رأى رؤية، فيها أبا بكر ينزح من بئر وكان في نزحه ضعف ويغفر الله له، فأخذها عمر فصارت غرباً، وهذه الرؤية ترمز إلى الامتداد والفتح الإسلامي الذي تم في إمارة عمر. أخرجه البخاري في التعبير (١٢/٤١٢) عن ابن عمر.

(٢) رواه ابن هشام (٢/٢٥) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا. راجع البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٣-٤/٤).

والارتباط المستمر بين الدعوة والعفاف له موضع أساسي، هو البيت مكوناً بتصور الدعوة ومبنياً بمقتضياتها.

ومن هنا تبدأ المهمة الدقيقة الصعبة .. تكوين البيت بتصور الدعوة. ولنبدأ المهمة من لحظتها الأولى ..

وهي ضرورة تحقيق التوافق التام بين واقع الأسرة والدعوة، من خلال معالجة مفهوم التجرد، ومن خلال أسلوب ممارسة الدعوة وأسلوب تكوين البيت.

* * * * *

معنى التجرد

ونبدأ في تحقيق التوافق بمعالجة آثار الفهم الخاطئ عند البعض عن معنى (التجرد)، الذي يتحدد عندهم في ضرورة العيش للدعوة وحدها، دون تفكير في زوجة أو رغبة في ذرية، ولذا كان لابد ابتداءً من تحديد وتصحيح مفهوم التجرد على أنه: امتلاك الشيء .. والقدرة على بذله .. والصبر عند فقده.

فعندما ابتلى الله أيوب بفقدان أهله وصبر، آتاه الله أهله ومثلهم معهم؛ لأن الصبر في البلاء قد تحقق وتحقق معه التجرد، ولا يضر بعد ذلك أن يكون لأيوب أهل، وحتى مثلهم معهم.

وإبراهيم عندما أمره الله بذبح ابنه إسماعيل استجاب لأمر ربه .. ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٢-١٠٥)، وبدون أن يذبح إبراهيم ابنه حقق التجرد باستعداده للتضحية، وهذا هو المقصود، ولم يكن المقصود ذبح الابن، بدليل أنه بدون الذبح قال الله له: ﴿قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ ..

وعلى هذا فإن معنى التجرد هو: أن يكون للإنسان زوجة وذرية .. لكنه يستطيع التضحية بالحياة معهم .. إذا اقتضت ضرورة الدعوة ذلك. ولقد قال الله تعالى في المرسلين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ (الرعد: ٢٨).

وهذا موسى عليه السلام يتزوج في أخطر مراحل الدعوة، بعد أن فر من مصر خائفاً يترقب.

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ تحقيقاً دائماً للانسجام والتوافق بين دعوته وبيته، وهذه هي حقيقة التجرد الواقعية، إذ يقول الرسول ﷺ: (حب إلى من دنياكم ثلاث:

المسك والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة^(١). فقد جمع الرسول ﷺ بين قرّة العين في الصلاة، ومعناها قمة القرب من الله وبين حب الزوجة.

بل إن النبي ﷺ يبين أن أفضل مكان لصلاة المرأة هو مخدعها، فيقول: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها)، كما حقق الرسول ﷺ ذلك الربط عملياً عندما كان يصلى على فراش عائشة، وهذا معناه أن المكان الذي يكون فيه الإنسان مع زوجته، من الممكن أن يكون - هو بذاته - مكان قرب الإنسان من الله دون تعارض، ولكن صلاة الرسول ﷺ في فراش عائشة لا تؤثر في رغبة النبي الشديدة في التعبد ..

وهاهي ذي عائشة تصف ذلك عندما سألتها ابن عمر: أخبرينا بأعجب شئ رأيته من رسول الله ﷺ فبكت، وقالت: (كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي، فقلت: والله إنني لأحب قربك، وإنني أحب أن تعبد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض)^(٢).

وكذلك يربط الرسول ﷺ بين مشاعر العبودية لله ومشاعر الأبوة والرحمة بالذرية في وقت واحد، فكان يسجد، فإذا ارتفع الحسين فوق ظهره ظل ساجداً حتى ينزل، وكان يصلى وهو يحمل ابنته زينب^(٣) على يده، وبذلك تمتزج مشاعر العبودية لله مع مشاعر الرحمة والأبوة، كما كان ﷺ يوازي بين تعلم الرماية للحرب باعتبارها أهم أعمال الجهاد، وبين اللهو مع الأهل في كونهما من الحق، فقال رسول الله ﷺ: (كل شئ يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رميه عن قوسه، وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق)^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٨) والنسائي (٧/٠٦١)، وفي العشرة له (ص٣٤)، والحاكم (٢/١٦٠)، وأبو يعلى (٦/١٩٩)، والطبراني الصغير (١/٢٦٢) الفقرة الأخيرة، وغيرهم، وسنده صحيح - دون زيادة كلمة (ثلاث) -. راجع الفتاوى الحديشية للهيثمي (ص٢٧٧)، ولفظة (ثلاث) مفسرة للمعنى كما لا يخفى.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) أخرجه مسلم (٦/٠٣١) والبخاري في (سترة المصلي) من حديث أبي قتادة.

(٤) صحيح الترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/٢٢٢) وأبو داود (٧/١٨٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الزواج والدعوة

وكما كان الانحراف الجنسي بداية حقيقية لتحول الأمة إلى الفساد ..
كان الاستمرار على هذا الانحراف سبباً مباشراً لهلاكها نهائياً ...
ولعل هذا هو المعنى المأخوذ من قول رسول الله ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه
وخلقه فزوجهوا إلا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد كبير). إذ إن الملاحظة الواضحة في
الحديث هي تعليق الفتنة التي تعم الأرض والفساد الكبير بعدم صحة الزواج في الأمة،
وهو الأمر الذي يتحتم معه الانحراف الذي تكون به الفتنة والفساد الكبير.
وتعليق الفتنة والفساد الكبير بعدم صحة الزواج الواردة في الحديث محددة بمرحلة
الاختيار.

ومرحلة الاختيار هي المرحلة التي تجتمع فيها كل المقاييس والتصورات والتقاليد والقيم
الاجتماعية؛ لأنه بهذه الأشياء كلها يتم الاختيار، مما يجعل الخلل في الاختيار دليلاً مباشراً
على الخلل في كل هذه الأبعاد.

هذا الخلل الذي لا تستقيم معه أمة ، ولا تقوم لها قائمة.
وبعد الاختيار الصحيح في البداية ، يبقى الزواج صحيحاً حتى النهاية بالتجرد من
الحياة الدنيا والنجاة من ضغط النساء على الرجال في هذا الجانب.
وهناك سياقات قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية منها ما جاء في سورة
الحجر، حيث ناقشت في أول السورة قضية إهلاك الكافرين:
﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ، مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (الحجر: ٤-٥).

ثم تناقش السورة مهلك قوم لوط -وهم علامة الشذوذ ومثل الانحراف- بصورة
مفصلة، لتناقش السورة بعد ذلك ضمانات بقاء هذه الأمة المسلمة إلى قيام الساعة فكان
هذا الفضل متمثلاً في سورة الفاتحة التي لم ينزل مثلاً في التوراة والإنجيل والقرآن .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في كتاب الله لسورة ما أنزل علي مثلها، فسأله أبي عنها فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من الباب حتى تعلمها ، فجعلت أتباطأ ، فسأله أبي عنها فقال: كيف تقرأ إذا قمت في صلاتك؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن - أو قال الفرقان - مثلها ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧).

وكانت الضمانة الموازية للفاتحة ، هي تجرد الرسول ﷺ من النظر إلى الحياة الدنيا ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨).

أما في سورة طه فيجمع الله بين هلاك الأمم الكافرة والنهي عن مد العين إلى متاع الحياة الدنيا وتقرير أن العاقبة للتقوى في سياق واحد: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (طه: ١٢٨) ، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَآبَقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

وبتحقيق الزواج الصحيح تتحقق أكبر فاعلية لانتشار الأمة الصحيحة وبقائها . والدليل الأول على هذه الفاعلية هو قول الله - عز وجل - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨).

ومن هذه الآية نشأ أخص الأبعاد القدريّة لقضية الزواج، ذلك أن الآية تثبت لجميع المرسلين صفة التزاوج .. ومن هذه الصفة نشأت أمة الأنبياء .. وبأمة الأنبياء تحققت أقدار الله في البشرية كلها، ذلك أن قدر كل أمة مرتبط بقدر نبيناها.

إذ جاء بعد هذه الآية مباشرة: ﴿يُحْوِ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩) فأصبحت حقيقة تزاوج المرسلين - التي كانت بها الذرية التي نشأت بها أمة الأنبياء - هي الحقيقة الثابتة في اللوح المحفوظ - وهو أم الكتاب - التي يتحدد بها أقدار الأمم.

ولعل أخطر الأمثلة على ارتباط أقدار الأمم بالزواج بصورة تفصيلية، هو أن تنشأ أكبر

أمتين ارتباطاً بتلك القضية .. أمة بنى إسرائيل، وأمة الرسول ﷺ.

فقد بدأ قدر أمة الرسول ﷺ (بالاستجابة لغيره سارة من هاجر زوجة إبراهيم الخليل)، ثم الاستجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل بأن يبعث في أهل هذا المكان رسولاً منهم، ولذلك يقول النبي ﷺ: (أنا دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم)، وذلك عند بناء البيت الحرام الذي تحدد مكانه لإبراهيم، وأسكن فيه إبراهيم زوجته هاجر، حيث ذهب بها إبراهيم إلى المكان عندما طلبت منه سارة هذا بعد غيرتها من هاجر التي رزقت بإسماعيل. يقول الله - عز وجل -: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وأيضاً نجد أن زواج موسى وعلاقته بالدعوة، يتضح جلياً من الخطوات التي حددتها الآية التي وصفت حال موسى، ابتداءً من هروبه من مصر وهو خائف يترقب، ووروده ماء مدين ليقف موقف المروءة والنخوة والعفة والأمانة، فهو يدفع الظلم عندما يجد امرأتين لا تستطيعان السقاية بسبب الرجال، ثم يدعو ربه أن ينزل عليه من الخير، لتكون الاستجابة هي دعوة الرجل الصالح ليجزيه أجر السقاية، تلك الاستجابة التي يبدو فيها جلياً أهمية العفة والأمانة وصيانة النظر عن المحرم، فيأمر المرأة أن تسير خلفه، لا أمامه ولا بجواره، ثم تطرح فكرة الزواج، ويقضي موسى أحسن الأجلين المتفق عليهما.

ويأتي الزواج ليكون بداية لمرحلة إعداد موسى للقاء الله عز وجل، مرحلة تحل فيها السكينة محل الخوف والجزع، ويكون فيها الخير، بخدمته للرجل الصالح، مرحلة تتجلى فيها أهمية الزواج، وارتباطه بالدعوة ارتباطاً متجانساً.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ (القصص: ٢١-٣٠) .

فإذا به يدخل الوادي المقدس طوى؛ ليكون كلام الله معه، فيوحي إليه، ويبعثه إلى بني إسرائيل؛ لتنشأ أكبر أمة بعد أمة النبي - عليه الصلاة والسلام. وتكون الأولى من خلال رغبة سارة في رحيل هاجر بعد غيرتها، وتكون الثانية من خلال زواج موسى من ابنة الرجل الصالح بعد الخوف والترقب. ثم يكون اللقاء مع الله من خلال بحثه لأهله عن جذوة من النار لعلهم يصطلون.

وإذا كان المتفق عليه قدرًا عظيمة الاستجابة .. فإن نشأة هاتين الأمتين تؤكد عظمة شأن وشرف العلاقة الزوجية ومقتضياتها عند الله - عز وجل، باعتبار أن هذا الإنشاء كان من خلال هذه العلاقة.

من أجل ذلك نجد اختصاصاً قرآنياً بين النبوة والرسالة والدعوة وبين قضايا الزواج وأحكامه، وذلك من خلال النداء بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ لرسول الله ﷺ وهو قول الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٥-٤٦ الأحزاب)

حيث لم يرد هذا النداء في القرآن لرسول الله ﷺ إلا في قضايا الزواج وأحكامه، ومنه ما يتعلق بأحكام زواج النبي نفسه ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨) .

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عُمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ

أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ (الأحزاب: ٥٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤١﴾ (التحریم: ٤١).

ومنه ما يتعلق بأحكام زواج المؤمنين مثل قوله - تعالى - في أول سورة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا، فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَبَرِّزْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا، أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ جَمَلٍ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى، لِيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمِنْ قُدْرٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿١-٧﴾ (الطلاق: ١-٧).

ومنه ما يتعلق بأحكام نساء النبي ﷺ والمؤمنين، مثل قوله في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

أما بقية الآيات التي ورد فيها النداء ولم تتعلق بالزواج، فقد جاءت هادفة لحماية

الأمة من الجانب العسكري الذي يوازي قضية الزواج الهادفة لحماية الأمة من الجانب الاجتماعي، حيث جاءت في أمر الله - عز وجل - إلى النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وعدم طاعتهم، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُئَسُّ الْمُسِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣).

ونفس ألفاظ هذه الآية في سورة التحريم.

أما سورة الأحزاب ففيها قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١).

وتعلق هذا النداء في هذه الآيات بجهاد الكفار والمنافقين وعدم طاعتهم، جاء مقترناً بنفس قضية النساء والزواج والأعراض؛ لأن التحلل الخلقي هو في حقيقته.. حركة نفاق. والدليل المباشر على ذلك هو ما ورد في سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩).

ثم جاء بعدها ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦١).

وكما أن الانحراف الناشئ عن الخطأ في عملية التزاوج سبب في دمار الأمم من البداية، فإن إقامة العلاقة الزوجية الصحيحة بكل عناصرها هي أساس إقامة الأمم، وامتدادها الصحيح.

وحديث الرسول ﷺ (إذا جاءكم من ترضون دينه ..) الوارد في هذا المعنى ليس هو النص الشرعي الوحيد المؤكد لهذا المعنى، بل إن هناك نصوصاً قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية، وهو ما ورد في سورة البقرة التي ناقشت في سياق واحد أحكام الزواج والطلاق، ثم يتبعها بقصة طالوت ذات المضمون المنهجي المحقق لقدر النصر والغلبة على الكافرين.

وكذلك سورة النساء التي تناقش في بدايتها كل أحكام النساء ثم يتبعها قضية النصرة والنصير.

وسورة المجادلة التي تبدأ بمناقشة حكم الظهار لتنتهي بتقرير ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ (المجادلة: ٢١-٢٢) .

وفي سورة الفرقان التي تربط بين الإمامة في الدين وقرّة العين بالأزواج والذرية .. كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) .

وبذلك أصبح الزواج من سنن المرسلين، كما قال النبي ﷺ :

(أربع من سنن المرسلين: النكاح والسواك والتعطر والحناء) (١)

(١) رُوِيَ فِي الْجَامِعِ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَجَّاجِ الْخَافِظَ يَقُولُ الصَّوَابَ (الْخَتَانِ)، وَسَقَطَتِ النُّونُ مِنَ الْحَاشِيَةِ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْمُحَافِلِيُّ عَنْ شَيْخِ أَبِي عَيْسَى التِّرْمِذِيِّ .

التوافق بين البيت والدعوة

أسلوب ممارسة الدعوة

وبعد معالجة مفهوم التجرد، نبدأ في المعالجة الواقعية، استمراراً في تحقيق التوافق بين ضرورة الدعوة وتكاليفها، وبين الطبيعة الأسرية في الإنسان بأسلوب الدعوة ذاته، وهذا هو أحد المواقف في واقع الدعوة نرى فيه رجلاً صحابياً اسمه حاطب بن أبي بلتعة يبعث بخطاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول ﷺ سيأتي إليهم بجيش، ويعلل هذا بأن كل الصحابة لهم ما يحمي أزواجهم وأولادهم في مكة، فأراد أن تكون له بهذا العمل عند أهل مكة يد يحمي بها زوجته وأهله، ويصدق الرسول ﷺ على هذا التعليل ويقول: (صدق)، ويأمر الصحابة ألا تقول له إلا خيراً^(١).

ولما تغيب عثمان عن بدر، كانت تحته بنت رسول الله وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: (إن لك أجر رجل وسهمه)^(٢)، وعندما كان الرسول ﷺ يغزو كان يترك على المدينة من يحمي النساء، وكان يترك عليهن أقوى من عنده من الرجال، منهم علي بن أبي طالب. وكان رسول الله ﷺ يوازي بين ثواب الذي يجهز الغازي وثواب الذي يحمي أهله وبين ثواب الغزو، فيقول: (من جهز غازياً فقد غزا ومن خلفه في أهله فقد غزا)^(٣)، ومن هنا يتبين أن هدف حماية الزوجة والأهل ليس بالأمر الذي يتغاضى عنه أصحاب الدعوة عملياً في تحقيق أهدافها، ولما كان التجمع الإسلامي تجمعاً مجاهداً كان مبدأ كفالة أهل المجاهد مبدأ اجتماعياً، وصيغة هذا المبدأ هي قول رسول الله ﷺ: (من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كلاً فعلي)^(٤). ولا بد أن تكون كفالة الجماعة المسلمة لأسرة المجاهد كفالة

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٧/٣٠٤) ومسلم (١٦/٥٤) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الغازي (٧/٥٤) والمسنند (٢/١٢٠) من حديث ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري (٦/٤٩) في الجهاد، مسلم (١٣/٤٠) من حديث زيد بن خالد.

(٤) أحمد في المسند (٢/٤٦٤) من حديث أبي هريرة، وفي مواضع من مسنده وأبو داود (٨/١٠٦-١٠٥) من حديث المقدم بن معد يكرب والنسائي (١/٢٧٩-٢٧٨) وسنده صحيح.

اجتماعية كاملة، وليست مجرد معونة مادية محدودة، وقد توجب تلك الكفالة الزواج من زوجة الشهيد، وزواج الزوجة بعد زوجها إذا مات، أو زواج بعد زوجته إذا ماتت لا ينقض معنى الوفاء والحب الذي كان بينهما.

وهذه أم سلمة كانت تحب أبا سلمة إلى درجة لم تكن تظن فيها أن هناك رجلاً يماثلها، إذ إنه لما مات قال لها رسول الله: (قولي إنا لله وإنا إليه راجعون، فما من عبد تصيبه مصيبة، ويقول هذه الكلمة إلا أبدله الله خيراً منها)، فقالت في نفسها: ومن أين سيأتيني خير من أبي سلمة؟!...

فقدر الله أن تتزوج رسول الله ﷺ نفسه، وتصبح أما للمؤمنين.

وكفالة الجماعة المسلمة لأسرة الفرد المجاهد ليست مجرد معالجة نفسية تحققطمأنينة المجاهد على أسرته، ولكنها بمعناها الحركي: هي توجيه طاقة الفرد الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو أسرته إلى طاقته الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو دعوته، وبذلك يتحرك الفرد الذي يشعر بالأمان على أسرته بطاقته الكاملة، ويسعى بتلك الطاقة صادقاً إلى الشهادة.

وعندما ينشأ واجب الزواج من زوجة الشهيد فإنه يندب لهذا الواجب أخ متزوج، باعتبار أن الأخ البكر يفضل له الزواج من بكر مثله لقول رسول الله ﷺ عندما سأل جابراً عن زواجه: (أتزوجتها بكرة أم ثيباً؟ قال: بل ثيباً). قال: أما تزوجتها بكرة تداعبها وتداعبك^(١)، وندب الأخ المتزوج للزواج من زوجة الشهيد يعني مواجهة النقل الجاهلي الرافض لمبدأ التعدد.

ومن هنا يصبح هذا الزواج انتصاراً اجتماعياً على الرواسب الجاهلية.. والتعدد من حيث الأصل الشرعي من الأمور المباحة التي يساوى فيها الفعل والترك، أما باعتباره ضرورة لمعالجة آثار الجهاد الإسلامي في الواقع الاجتماعي للدعوة، فإنه يصير أمراً مندوباً.

وعلة خلف الشهداء في زوجاتهم التي نشأ عنها الندب الشرعي للتعدد، ينفي وجود أي علة متعلقة بالزوجة الأولى لتعدد زوجها عليها، وبذلك يكون من السهل عليها قبول الأمر والرضا به؛ لتثبت بهذا القول أن زواجها على الأساس الإسلامي لم يكن من مدخل

(١) متفق عليه من حديث جابر رواه البخاري في النكاح (٩/١٢١) ومسلم في النكاح أيضاً.

(الأخذ) ، وتحقيق المصلحة، بل كان من مدخل (العطاء) ، وتحقيق الالتزام، وواقع التعدد لا يتنافى مع مفهوم الحب كأساس للعلاقة الزوجية، فإذا كان الحب بين الزوجين هو أن تكون الزوجة أحب الناس إلى الزوج دون غيرها، فإنه عند التعدد يصير من الواجب على الزوج إقناع كل زوجة من زوجاته بأنها أحب الزوجات إليه.

ولا يمكن القول بأن علة خلف الشهداء في زوجاتهم كمبرر للتعدد يعالج الأمر تماماً عند الزوجة الأولى، ولكنه يخفف من وطأة الأمر عليها.

والجدير بالذكر أن الغيرة بين النساء في واقع الدعوة يخففها الشعور بتميزهن العام عن النساء اللاتي لم يدخلن هذا الواقع، وتبثبت صفة الداعية على المرأة يقلل من صفة الأنثى فيها، وهي الصفة التي تتبع منها مشاعر الغيرة ؛ لأن المرأة - كصاحبة دعوة - تكون ذات اهتمامات عالية ؛ فيقل في كيان المرأة مشاعر الغيرة باعتبار أنها مشاعر لا تتفق مع علو الاهتمامات، وأيضاً فإن الشعور بالخطر الذي يحيط الدعوة يسهم في تحقيق هذا الأمر، وكذلك فمن الممكن توجيه مشاعر الغيرة إلى عامل تنشيط للمرأة في واقع الدعوة لتحقيق أهدافها، بحيث يصير مقدار هذا التحقيق هو مقدار ما تتميز به عن غيرها من النساء ^(١)، وفي النهاية يجب أن تلجأ الزوجة إلى الله - سبحانه - أن يخفف عليها الأمر ويرضيها به، والله على كل شئ قدير.

وللدعاء في معالجة هذا الأمر أثر محقق - إن شاء الله - بدليل ما كان في زواج رسول الله ﷺ من أم سلمة. فعن أم سلمة قالت: (لما انقضت عدتها بعث إليها أبو بكر يخطبها عليه، فلم تتزوجه، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يخطبها عليه، فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أنني امرأة غیری - أي أن غيرتها شديدة - فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال ﷺ: ارجع إليها، فقل: أما قولك: (أني امرأة غیری) فسأدعو الله فيذهب غيرتك، وأما قولك: (أني امرأة مصيبة) فستكفين صبيانك، وأما قولك: (ليس أحد من أوليائي شاهداً) ، فليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك، فقالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ فزوجها ^(٢)).

(١) ولذلك كان يريد الرسول ﷺ التميز بين نسائه بصالح العمل فيقول (ستتبعني منكن أطولكن يداً... يقصد الرسول ﷺ ستلحق بي في الآخرة أكثرن كرمًا ولكن نساء الرسول فممنهن أن المقصود هو الطول الفعلي فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها وتقارنه بذراع الأخريات مما اضحك النبي ﷺ). راجع شرحه من صحيح مسلم شرح النووي (١٦/٨) .

(٢) أخرجه النسائي في (النكاح) (٨١ - ٨٢ / ٦) .

وفي هذا الحديث دليل على إمكانية ذهاب الغيرة بالدعاء، ومما لاشك فيه أن فكرة الزوجة الأخرى وما يتعلق بها أمر له خطورته النفسية، ولكن تقديم النموذج الطيب للعلاقة الكريمة بين الزوجات أمر له أثره في معالجة هذه الخطورة.

وهذه عائشة تتحدث عن زينب - رضي الله عنها - فتقول: (وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرقط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله - تعالى - ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفينة)^(١)، وتقول عائشة أيضاً وكان النبي ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ عن أمري: يا زينب ما علمت أو ما رأيت؟، فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ووالله ما علمت إلا خيراً).

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع.

وهذا حوار بين الاثنين ..

قالت زينب: يا عائشة ما قلت حين ركبتيتها - أي الناقة في حادثة الإفك - قالت: (قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالت زينب: قلت كلمة المؤمنين).
وكم كان جميلاً من عمر بن الخطاب^(٢) - رضي الله عنه - أن يستبدل لفظ (جارة) بدل من (ضرة)، فيقول لابنته حفصة: (لا يغررنك إن كانت جارتك أوسم منك) يعني عائشة.

وليس الزواج من زوجة الشهيد هو الصورة الوحيدة لأداء واجب الجماعة تجاه أهل الشهيد ..

بل قد يكون لهذا الشهيد أبناء تتعارض مصالحهم مع فكرة زواج الأم، وعندئذ يكون صبر الأم عن الزواج لتربية هؤلاء الأبناء هو الأمر الواجب، بدليل قول رسول الله ﷺ:

(١) الحديث رواه مسلم فضائل الصحابة ١٣ (١٥/٢٠٦) شرح النووي .

قال النووي (....) والسورة: الثوران وعجلة الغضب وأما (الحدة) فهي شدة الخلق وثورانه، ومعني الكلام أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق وسرعة غضب تسرع منها .

الفينة - وهي الرجوع أي: إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعاً ولا تصر عليه) .

(٢) متفق عليه: البخاري (٨/٥٧) ومسلم في الطلاق (١٤٧٩) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنه.

(أنا وامرأة سفعاء في الجنة^(١) كهاتين: امرأة أمط من زوجها، فحبست على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا).

وعندما يكون للزوجة أيتام فإن خطر عزوبتها ينعدم، باعتبار أن غريزة الأمومة أقوى من غريزة الجنس، ولولا ذلك ما كان هذا الحث من رسول الله ﷺ على الصبر على زواجها حتى تربي أيتامها.

وعندما يكون الواجب هو صبر الأم عن الزواج لتربية الأبناء، فإن هناك واجباً جديداً ينشأ على الجماعة تجاه تلك الأم، وهو إنشاء الوضع الاجتماعي الكريم لها، ليس فقط من الناحية المادية، ولكن من ناحية أهم وهي (الكرامة الاجتماعية)، ذلك لأن كرامة المرأة الاجتماعية مرهونة بزواجها^(٢).

وعندما تختار زوجة الشهيد أن تعيش بغير زوج من أجل أبنائها، يصير أداء واجب تكريمها حقاً لها على الجماعة، وأماناً لها من الانحراف؛ لأن محافظة المرأة على عرضها إنما يكون بمقدار كرامتها بين الناس، لعل هذا مدلول قول (هند) للرسول عند بيعة النساء: (أو تزني الحرة ١٩)^(٣)، لعل هذا أيضاً هو علة جعل حد الزنا على الجواري نصف حد الحرائر.

وإذا كان خلف الشهداء في أهليهم هو واجب الجماعة فإن واجب المجاهد أن يؤمن أنه وأهله في ولاية الله، وأنهم أمام قضاء الله وقدره سواء؛ ولهذا يبين الرسول ﷺ أن حماية الرجل والأهل مرجعها إلى الله فيقول: (اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)^(٤).

ومع إيمان الزوج بأنه هو وزوجته أمام قدر الله سواء، لا بد أن يؤمن أيضاً أنه ووزوجته أمام مسئولية الدعوة وتحمل تكاليفها أيضاً سواء، وهذا يأسر وزوجته سمية يستشهدان معاً، والموعود هو الجنة.

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/٢٩) من طريق شداد أبي عمار عن عوف بن مالك قال رسول الله ﷺ: في الحديث.
(٢) ولذلك نرى أن زيد الذي كان زوجاً لزَيْنَب ويرغب في طلاقها يقول فيها بعد زواجها من رسول الله: فما إن رأيتها بعد زواجها من رسول الله حتى أكبرتها في نفسي.
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/٥١) سورة الممتحنة.
(٤) أخرجه مسلم في (الحج) رقم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أسس تكوين البيت :

وبعد المعالجة بأسلوب الدعوة نأتي إلى المعالجة بأسلوب تكوين البيت استمراراً في تحقيق التوافق بين واقع الأسرة والدعوة ؛ إذ إن وقت تكوين البيت له خطر كبير على نفس الإنسان صاحب الدعوة، حيث ينشأ الاحتياج المادي ويتعمق الشعور بالشح، ويقوى الاندفاع إلى تحقيق الرغبة في تكوين البيت، وهذا أمر طبيعي في النفس البشرية، يؤكد الرسول ﷺ في حديثه: (كان نبي فيمن كان قبلكم أراد أن يغزو فقال: لا يتبعنا ثلاثة: رجل له عشار وينتظر أن تلد له، ورجل بنى بيتاً ولم يكمله، ورجل عقد على امرأة ولم يبن بها) ^(١) ؛ ولهذا وجب الاهتمام بالنفس البشرية في وقت تكوين البيت حتى لا يكون هذا التكوين نقطة تحول سيئة في حياة المسلم .

وذلك من خلال عدة قواعد أساسية:

- الربط بين مراحل التكوين وطبيعة البذل تبادلياً لأثر الشح، ويتحقق هذا بتنفيذ الوليمة عند البداية وسنة العقيقة بعد الولادة والكرم بصفة دائمة ؛ لأن الإنفاق عندما يخشى الإنسان الفقر ويأمل الغنى - هو الذي يحمي الإنسان من البخل ويحقق البر، إذ يقول الرسول ﷺ: (خير الصدقة وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى) .
- وكذلك الربط بين مراحل تكوين البيت والآخرة، حيث تكون المعاشرة الزوجية مرتبطه بيقوى الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) .

وكذلك السعي من أجل الرزق يرتبط بالإحساس بالآخرة ؛ لأن الانفصال بين السعي للرزق وتذكر الآخرة هو الذي ينشئ الانشغال ؛ ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥) .

فتذكر الآية بالنشور إلى الله مع الأمر بالسعي للرزق، وفي كل ما يملكه الإنسان في حياته، وحتى أيسر الأشياء، يجب قيام هذا الربط من خلالها، فدعاء ركوب الدابة فيه: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ^(٣) .

(١) متفق عليه: البخاري في فرض الخمس (٦/٢٢٠)، ومسلم في (الجهاد) (١٧٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) هو جزء من الحديث قبل السابق الذي أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٣٤٢) .

(٣) متفق عليه: البخاري في النكاح، باب الاكفاء في الدين ومسلم رقم (١٤٦٦٩) في الرضاع من حديث أبي هريرة .

ودعاء لبس الثوب الجديد فيه: (البس جديداً وعش سعيداً ومث شهيداً حميداً) ..
غير أن الأمر الخطير حقيقة والذي يسبق في خطورته كل العوامل السابقة ليتحقق
التوافق بين واقع الأسرة والدعوة - هو (اختيار الزوجة أو الزوج).

الاختيار :

والقرآن يحدد ضرورة اختيار الزوجة أو الزوج بمقتضى الدعوة، فيقول الله سبحانه:
﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا
تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ
إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).
وواضح من الآية حكمة رفض المشركة أو المشرك؛ في أنهم أصحاب دعوة إلى النار،
وأن حياتهم المرتبطة بهذه الدعوة الباطلة لا تتفق مع المؤمن صاحب الدعوة إلى الله ﴿وَاللَّهُ
يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٢١)، والدعوة إلى الله صبغة حياة الداعية،
ولابد أن تكون الزوجة والزوج لوناً منسجماً ومتجانساً مع هذه الصبغة.

وقد حدد الرسول ﷺ لنا صفات الزوجة الصالحة بصفة عامة، بقوله: (تتكح المرأة
لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاضطر بذات الدين تربت يداك) ^(١)، وقوله
ﷺ (الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة ؛ إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت
عنها حفظتك في نفسها ومالك) ^(٢). وفي رواية: (ألا أخبرك بخير ما يكثر المرء: المرأة
الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته) ^(٣).
وعن ثوبان قال: (لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قال: (فأي مال نتخذه ؟، قال عمر: أنا
أعلم ذلك لكم، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال يا رسول الله أي المال نتخذ ؟،
قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم في أمر الآخرة) ^(٤).

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، أما الزيادة ففي رواية أخرجه
النسائي (٢/٧٧٢) والحاكم (٢/١٦١) وهي صحيحة أيضاً .

(٢) أخرجه أبو داود (٥/٨١) والحاكم (١/٤٠٩/٠٤٠٨) من طريق غيلان بن جابع عن جعفر بن إياس عن مجاهد عن ابن عباس وهو منقطع بين
غيلان وجعفر، راجع السلسلة الضعيفة رقم (١٣١٩) وتفسير ابن كثير (٣/٣٩٠) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٧٨) والترمذي في التفسير (٤٩١-٨/٤٩٢) تحفة الأحوذى، وابن ماجه في النكاح رقم (١٨٥٦) من طريق
سالم بن أبي الجعد عن ثوبان، وسنده منقطع لأن سالماً لم يسمع من ثوبان، كما قال البخاري والإمام أحمد وغيرهما وقال الترمذي: حسن.
وحكي عن البخاري أن سالماً لم يسمع من ثوبان . وفي إسناده أحمد وابن ماجه (عبد الله بن عمرو بن مرة) فيه كلام .

ولن تعين الزوجة زوجها على أمر الآخرة إلا إذا أرادتھا هي ..

وهي صفة محددة مهمة يجب أن تتزود بها زوجة الداعية :

أن تكون امرأة لا تريد إلا الآخرة، وهذه الصفة شرط أساسي لمعالجة الطبيعة الإنسانية للمرأة في واقع الدعوة ؛ لأن المرأة ستضحي بإحساس الأمان في حياتها والحماية من زوجها، كما أن المرأة ستضحي بالتميز المادي، وهذه كلها أمور تفرضها الدعوة على الزوجين اللذين يعيشان في واقعها، سواء أكانت الدعوة في مرحلة الاستضعاف والجهاد من أجل التمكين، أو في مرحلة التمكين لكي لا يتحول هذا التمكين إلى إمكانية مادية لتطلعات المرأة ورغباتها.

وهؤلاء هن نسوة النبي ﷺ يتظاهرن عليه ويطالبن بتغيير المعيشة بعد أن جاءت الأموال وتحقق التمكين ؛ فأمر الله - سبحانه - النبي ﷺ أن يخبر نساءه بين الرضا بالمعيشة التي هن عليها أو الطلاق، فجاء قوله تعالى: ﴿وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا، وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أُجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٧-٢٩).

فجاء ذكر ميراث الأرض والديار والأموال - وهو السبب الذي جعل النساء يطالبن بتغيير المعيشة - قبل التخيير بين الدنيا والله ورسوله والدار الآخرة.

فالمرأة بطبيعة الضعف والطموح والرغبات المادية لا يمكن أن تصدق في جهاد، إلا إذا تجردت من تلك الصفات وأرادت الآخرة.

وكما أن إرادة الآخرة شرط في زوجة الداعية لتحمل تكاليف الدعوة، فهي أيضاً شرط لكي لا يكون لها تأثير سيء في زوجها ؛ إذ أن للمرأة تأثيراً مباشراً في إحساس زوجها بالدنيا ؛ ولهذا يعالج القرآن نظرة النبي ﷺ إلى الدنيا من خلال توجيه زوجاته إلى العبادة، فيكون صحيح موقف الزوجة حماية لإحساس الزوج: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه ١٣١-١٣٢).

وتحقق إرادة الآخرة يعتبر أساساً لمعالجة صفة خطيرة في المرأة وهي (حب التميز)،

إذ يجب توجيه هذا الشعور إلى الآخرة تفادياً لخطر اتجاهه نحو الدنيا ؛ حتى يتفق تجردها للدعوة، وقد عالج القرآن هذا الشعور عند نساء النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقُكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيْبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم: ٥).

ففي هذه الآية استفزازاً صريح لهذا الشعور من خلال النص: (خَيْرًا مِنْكَ)، لأن هذا النص أوجد في إحساس نساء النبي وجود نساء أخريات خيراً منهن، وأصبح حبهن للتميز متجهاً نحو تحقيق الصفات التي ذكرها القرآن للنساء البديلات، وبذلك يصبح التميز دافعاً للعمل الصالح.

ولقد تعامل النبي ﷺ مع نسائه بهذا الأسلوب القرآني فكان يربط التميز بينهن بصالح العمل، فيقول: (ستبغيني منكن أطولكن يداً) ^(١) يقصد الرسول ﷺ ستلحق بي في الآخرة أكثركن كرمًا، ولكن نساء الرسول ﷺ فهمن أن المقصود هو الطول الفعلي، فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها، وتقارنه بذراع الأخريات ؛ فأضحك ذلك النبي ﷺ ^(٢).

واختيار زوجة الداعية يجب أن يكون باعتبارها أنه إدخال امرأة في واقع الدعوة، وليس مجرد إدخال امرأة في حياة شخص، وهذه مسئولية الداعية صاحب الاختيار، وهي مسئولية ليست سهلة ؛ فمن أجل هذه المسئولية كان الأمر بامتحان النساء عند دخول واقع الدعوة في المدينة، إذ جئن مهاجرات ..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (المتحنة: ١٠).

فالمرأة تحمل في طبيعتها عناصر خطيرة مثل عنصر الضعف الذي قد يكون تفسيراً لهجرتها، حيث تكون الهجرة ودخول الواقع الإسلامي هروبا من واقع شخصي سيئ لها في جاهليتها لم تستطع مواجهته أو تحمله، أو عنصر الكيد الذي قد يجعل هجرتها ودخولها الواقع الإسلامي مجرد وسيلة أو أسلوب لتحقيق مأرب شخصي أو هدف ذاتي لها، وما يقال في الهجرة يقال في الزواج، لأن كلا الأمرين إدخال للمرأة في واقع الدعوة، ودليل هذه

(١) رواه مسلم (١٦/٨) في (الفضائل) وسبق تخريجه .

(٢) الحديث رواه البخاري وراجع شرحه من صحيح مسلم شرح النووي (١٦/٨) .

الافتراضات هو تفسير ابن عباس: (كان يمتحنهن: بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله)، وقول مجاهد: (فامتحنوهن) فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان الذي جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخط أو غيره، ولم يؤمن فأرجعوهن إلى أزواجهن، قال عكرمة: (يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله؟، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك؟) (١).

وفي اختيار الزوج أو الزوجة شرط معروف باسم (شرط التكافؤ). وفي تحقيق هذا الشرط يجب أن تدخل ظروف الدعوة؛ لأن قبول الأخ المسلم باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد وبذل، يعني ترسيخ قيم المجتمع المسلم عندما يقوم، ومن هنا يجب أن تنشأ في التجمع الإسلامي الحاسة السليمة التي يأخذ بها كل فرد حقه الاجتماعي بين المسلمين. ويشترط في ذلك تحول تاريخ الدعاة إلى مهوور للزواج، فلا يتكلم أحد عن نفسه ولا يذكر جهادا جاهدا ولا محنة أصابته ويصير هذا الحق مرتبطا بتلك الحاسة الاجتماعية العادلة.

وفي حادثة زواج بلال دليل على هذه الحاسة وذلك الشرط، إذ قال فيه من قدمه لخطبة إحدى النساء أنه مؤذن رسول الله، وصاحبه في جهاده... فأسكته بلال قائلاً: (إن تقبلوا فالحمد لله، وإن ترفضوا فسبحان الله!).

وقبول الأخ باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد لا يجب أن يكون هو السبب الوحيد في هذا القبول، وإن كان أساساً له، لأنه - بجانب هذا - يجب أن تكون الزوجة مقتنعة بزوجها اجتماعياً وشخصياً ومادياً، لأنه لوقام اختيار الأخ باعتبار دوره في الدعوة فقط فإن هذا سيترتب عليه أن يكون من ضرورات اطمئنان الزوجة إلى زوجها والرضا بمعيشته هو أن تعرف كل شيء عن دوره في الدعوة، لأن المرأة تحب بطبعها أن ترى في زوجها أسباب اقتناعها به، فينشأ خطر رياء الزوج لزوجته في جهاده ودعوته وعمله.

ومن الأخطاء الشائعة في اختيار الزوجة امتحانها فكرياً من خلال منهج الحركة الإسلامية وبصورة دقيقة، والخطأ في ذلك أن دور المرأة في الجهاد محدد بقوله ﷺ:

(١) ذكره ابن كثير.

(جهادكن حج مبرور)^(١)، وعلى هذا فيكون الفكر الحركي - كضرورة للجهاد - ليس داخلياً في دور المرأة ولكن من الممكن أن يكون الامتحان الفكري باعتبار الاطمئنان على ذكائها، أو الاطمئنان على استقرارها الفكري خوفاً من ظاهرة التقلب الفكري المرتبطة بظروف الفتنة الفكرية لضمان الاستقرار الاجتماعي بعد الزواج، والجدير بالذكر أن المرأة غالباً ما تتبع ما عليه الزوج، وهذه الحقيقة يجب ألا تجعل الأخ يعوّل كثيراً على الاختبار الفكري في جلسة الاختيار.

وفي جلسة الاختبار والخطبة غالباً ما يكون الأخ حريصاً على إعطاء صورة خطيرة لمستقبله، وذلك باعتبار الأمانة والاطمئنان على موقف الأخت التي سيتزوجها، والواجب في هذا الأمر باعتبار الأمانة فإنه يكفي فيه الأخ إعلان موقفه كمسلم يعيش في مجتمع جاهلي، وباعتبار الاطمئنان على موقف الأخت فإن قبولها للزواج من الأخ المسلم يعني ضمناً الاستعداد لتحمل الصعاب الناشئة عن اتخاذ الموقف الإسلامي الصحيح في المجتمع الجاهلي، ولكن ليس من الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل هذا الخطأ إلى حد تشعر فيه الأخت أن الذي أمامها ليس خطيباً يريد الزواج، ولكنه مصيبة ألتها، وبلاء تمر به.

وبعد تحقيق التوافق بين الأسرة والدعوة، ووضع البيت في اتجاه الحركة من خلال معالجة مفهوم التجرد وتحقيق التوافق بأسلوب الدعوة، ثم تحقيقه في تكوين البيت تتحقق الآثار الطيبة للزواج، وتتأكد قيمته في واقع الدعوة من ناحية الفكر والعقيدة وناحية الحركة والعمل.

آثار الزواج من ناحية الفكر والعقيدة:

وأول تلك الآثار هو أثر الزواج في الاعتقاد المترتب على أثر الحب في الفكر فهناك حقيقة إسلامية في النفس الإنسانية تؤكد أثر القلب والإحساس في الفكر اتفاقاً واختلافاً ومنطوق هذه الحقيقة هو قول الرسول ﷺ : (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكرت اختلف)^(٢).

(١) البخاري في (الحج) (٣/٣٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) علقه البخاري في (الأنبياء) (٦/٣٦٩) ومسلم رقم (٢٦٣٨) رواية البخاري من حديث عائشة، ورواية مسلم من حديث أبي هريرة .

كذلك فهناك حقيقة أخرى تؤكد أثر العقل والفكر في القلب والإحساس اتفاقاً أو اختلافاً، ومنطوقها قول الرسول ﷺ : (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)^(١).

ولما كان للزواج صلة مباشرة بإحساس الحب وللاعتقاد صلة مباشرة بصفة التفكير أصبحت هناك علاقة مباشرة بين الزواج والاعتقاد ، وهذه أمثلة تؤكد هذه الحقيقة:

فهذا العاصي بن الربيع - زوج زينب بنت النبي ﷺ - يخرج من مكة فراراً من الإسلام فتبعته إليه ليرجع إلى مكة، ويدخل في الإسلام، فبعث إليها برسالة هذا بعض نصها: (والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إلي من أسلك معك - يا حبيبة - في شعب واحد، ولكني أكره لك أن يقال أن زوجك خذل قومه، فهلا عذرتي وقدرتي) ..، ووضح من الرسالة أن العاصي كان يحب زينب، بدليل أنه يود ويحب أن يكون معها في طريق واحد، أيما كان هذا الطريق، كما أنه كره أن يقال لها ما يضايقها، ثم انه يطلب منها في النهاية أن تعذر وتقدر، ومن أجل هذا الحب فإن زينب استطاعت أن تذهب إليه، وتأتي به مسلماً.

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي يدخل في الإسلام ؛ فتأتي امرأته لكي تقترب منه، فيمنعها، ويقول لها: (لقد أصبحت عليّ حرام، قالت: ولم ؟، قال: أسلمت، فكان ردها: أنا منك وأنت مني، وديني دينك، وأسلمت^(٢)، ووضح من هذا الرد أنها اعتنقت الإسلام من خلال إحساسها بزواجها، حيث قالت: أنا منك وأنت مني، وأخذت من إحساسها أساساً لاعتناقها الإسلام فقالت: وديني دينك^(٣).

وهذه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، أسلمت يوم الفتح بمكة، وهرب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتى قدم اليمن، فارتحلت أم حكيم حتى قدمت عليه باليمن، فدعته إلى الإسلام فأسلم، فقدم على رسول الله - ﷺ - مسلماً.

وهذه أم سليم يأتي أبو طلحة ليتزوجها - وهو مشرك - فتأبى وتقول له: (إن أسلمت تزوجتك وصادقي إسلامك) ؛ فأسلم فتزوجته^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٣٦٤ - ٣٦٥) والنسائي في (الإمامة)، (٨٩ - ٩٠/٢) من حديث البراء بن عازب وسنده صحيح .
(٢) ذكرها ابن إسحاق مرسله، أنظر البداية والنهاية (٣/٩٩).
(٣) أنظر كتاب أسد الغابة (٤/٧٠) ونسب قريش للزبير (ص/٣١٠).
(٤) أخرجه النسائي في (الكبرى) كما في تحفة الأشراف (١/٣٩) من طريق إسماعيل بن عبد الله بن أبي طلحة وثابت عن أنس ولم يعزه لمسلم - من هذا الطريق وأنظر أسد الغابة (٣٤٥ - ٣٤١/٧).

وهذه الأمثلة توضح آثار العلاقة الزوجية والحب في الاعتقاد والفكر. وإذا قرأنا كتب السيرة، فسنجد أن الملاحظة العامة هي أن الذين أسلموا كان إسلامهم غالبا من خلال هذه العلاقة، وهذا هو أثر الزواج في العقيدة من ناحية الحب. وكما أن العلاقة الزوجية القائمة بالحب تعتبر أساساً للاتفاق في الاعتقاد والفكر، فإن هذا الاتفاق الفكري يعتبر بدوره أساساً لاستمرار العلاقة الزوجية وثباتها؛ وذلك لأن هذا الاتفاق الفكري بثباته هو الذي يعطى للعلاقة الزوجية صفة الاستقرار التي تحميها من أثر الفتور الوجداني والتقلب النفسي الذي قد يعرض لتلك العلاقة.

ثم تأتي ناحية الفطرة والجمال والمنفعة كعلاقة بين الزواج والاعتقاد، فالاعتقاد يقوم بالفطرة في الإنسان والمنفعة والجمال في الكون، وهذه العناصر الثلاثة هي مدار العرض القرآني لقضايا الاعتقاد، وهي التي تتعمق في النفس بالزواج؛ لأن الفطرة هي العنصر الأول في تحقيق الإيمان في الإنسان بأعماله الفطرية مهما كانت يسيرة، حتى ولو كان العمل مثل (قص الأظافر) الذي أخبرنا الرسول ﷺ أنه من الفطرة^(١). وقياساً على هذا العمل اليسير يصبح الزواج أقوى سلوك فطري يحقق التزاوج في الإنسان لأن الله خلقنا ﴿مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١). وبذلك تقوى الفطرة بالزواج.

وعندما يتزوج الإنسان أيضاً فإنه يحقق السرور بالنظر إلى من اختارها زوجة له، لقوله ﷺ: (إذا نظرت إليها سرتك)، وارتباط السرور بالنظر هو معنى الإحساس بالجمال، وبذلك أيضاً يعمق الزواج في النفس الإحساس بالجمال.

وعندما يتزوج الإنسان فإنه يكون قد حقق خير المتاع لنفسه في الحياة الدنيا، وحقق خير المنافع لأن (الدنيا متاع .. وخير متاعها المرأة الصالحة)^(٢) ..

وبذلك يكون الزواج فطرة ومنفعة وجمالاً .. يعطى الإنسان عمقا للإحساس بالقرآن، وهو يعرض قضية الإيمان بالله من خلال هذه العناصر الثلاثة ..

(الفطرة) في الإنسان و(المنفعة) و(الجمال) في الكون ..

ولذلك جاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٣) قول عكرمة: (هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي،

(١) قال رسول الله ﷺ (لخمس من الفطرة الختان والاستحداد وتقليم الأظافر وتنف الإبط وقص الشارب) (متفق عليه) .

(٢) رواه مسلم، وسبق تخريجه .

فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقضى حاجته منها وإن لم يكن له امرأة فليُنظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله^(١).

واضح في قول عكرمة كيف أن النظر في ملكوت السموات والأرض هو التصرف المعالج لأثر افتقاد الزوجة، وكيف أن الزواج يجمع آثار النظر في ملكوت السماوات والأرض، حيث تكون الفطرة والمنفعة والجمال.

ونواصل بحث آثار الزواج في واقع الدعوة من ناحية الحركة ..

فالعلاقة الزوجية تغرس في النفس طاقة الامتداد بقضايا الدعوة في حياة الناس ، وذلك عندما ترتبط الدعوة بعملية التزاوج ؛ إذا أن الإنسان يحب بطبعه أن يكون أي أمر مرتبط بزواجه أما عاماً في حياة الناس كلهم ؛ ولذلك نرى أن السيدة عائشة كانت تحب أن يتزوج النساء في شهر شوال ؛ لأنها تزوجت في هذا الشهر.

(عن عائشة- رضى الله عنها- قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، فأني نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني ٩، وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال)^(٢).

وكذلك فإن إحساس الغيرة والدفاع عن العرض كان الإمكانية الأولى لحماية الدعوة؛ إذا إن الولاء الحركي نشأ ارتكازاً على طبيعة الغيرة والدفاع عن العرض، ولهذا كان نص البيعة بين رسول الله ﷺ والأنصار هو قوله: (أن تحموني مما تحمون منه نساءكم وأموالكم)^(٣)، وتبقى طبيعة الغيرة الإنسانية على العرض طاقة مستمرة لحماية الدعوة حتى تصبح الغيرة على الدين قرينة الغيرة على العرض، ولذلك يقول الرسول ﷺ: (الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)^(٤).

والعلاقة الزوجية تغرس في نفس الإنسان صفة أخلاقية مهمة تعتبر الأساس الأول في الالتزام بالجماعة المسلمة، وتلك الصفة هي الارتفاع بمستوى الالتزام بالجماعة فوق مستوى الانفعال النفسي، وذلك لأن العلاقة الزوجية هي التي تحقق في الطبيعة الإنسانية

(١) ابن كثير ج ٦: ٥٥ .

(٢) رواه مسلم رقم (١٤٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٢٢) من طريق أبي الزبير عن جابر في حديث طويل وفيه (وعلي أن تنصروني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم)، وسنده حسن وعند البيهقي في السنن (٩/٩) التصريح بالتحديث عن جابر: أن جابراً حدثه .

والحديث صححه الحاكم (٢٤٤ - ٢/٦٢٥)، ووافقه الذهبي وجوده ابن كثير في النهاية (١٦٠/٣) .

(٤) متفق عليه: والبخاري في الإيمان (١/١٢٦)، ومسلم رقم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير .

صفة الاتزان السلوكي ؛ لأن ثبات العلاقة الزوجية دون التأثر بالانفعالات النفسية قاعدة قرآنية، إذ يقول الله- عز وجل:- ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

ولذلك يقول الإمام ابن القيم^(١) في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

(فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية، فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاودة، ويحب المواعدة والمشاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاودة، وكذلك يكره المرأة لو وصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويجب المرأة لو وصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كبير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول ففلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرتة وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره له بأمره ونهيهِ).

وهذا هو المطلوب في علاقة الرجل بالجماعة ؛ إذا إن الالتزام بالجماعة المسلمة لن يكون صحيحا إلا إذا ارتفع فوق الظروف النفسية، ومن هنا كانت البيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.

كما أن العلاقة الزوجية هي أكبر أسس الالتزام في الدعوة الإسلامية من الناحية التنظيمية، وذلك لأن ولاء الزوجة للجماعة يكون من خلال علاقتها بزوجها وقوامته عليها؛ إذ أن علاقة الزوجة بزوجها هي علاقة سمع وطاعة، وعلاقة الزوج بالجماعة المسلمة هي أيضا علاقة سمع وطاعة، ولهذا لم تكن هناك بيعة مباشرة لأي امرأة في الجماعة المسلمة، بدليل أن الرسول ﷺ لم يبايع النساء إلا ببيعة عامة.

كما أنه ليس هناك ولاء مباشرة بين امرأة وأخرى ؛ لأن المرأة في الدعوة لا تتولى الأمور، والدليل هو قول الرسول ﷺ: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)^(٢).

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین .

(٢) البخاري في التفسير (١٢٦ / ٨) من حديث أبي بكره .

والقاعدة في العلاقة بصفة عامة أن الرجال ولاية النساء، والله يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١): أي أن المؤمنين أولياء المؤمنات.

ومن هنا كانت هناك قاعدة مهمة تتعلق بالعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة، وهي أنه لا يجوز للجماعة أن تتدخل في واقع الأسرة إلا من خلال الزوج - صاحب تلك الأسرة - بدليل أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يجعل النساء يخرجن إلى المساجد لم يصدر أمراً مباشراً إليهن بذلك، ولكنه أمر النساء ألا يخرجن بدون إذن الأزواج، فقال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج من بيتها بدون إذن زوجها) ^(١)، ثم أمر الرجال ألا يمنعن النساء من المساجد، فقال: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) ^(٢).

والملاحظ في الحديث أن الرسول ﷺ ذكر النساء بوصفهن إماء الله، حتى يكون منطقياً ألا يمنعن عن مساجد الله، وذلك لكي لا يطفئ إحساس الرجل بالمرأة التي تحب عليها طاعته على إحساسه بها كأمة لله تريد عبادة الله.

وهناك مثال تطبيقي لتلك القاعدة التنظيمية التي تحدد العلاقة بين الأسرة والجماعة من خلال قوامة الرجل على زوجته وولائه للجماعة، وهذا المثال هو حادثة كعب بن مالك عندما تخلف عن غزوة تبوك، حيث أراد الرسول ﷺ أن يقاطعه المسلمون، فأصدر أمره إلى المسلمين بمقاطعته، ولكن عندما أراد ﷺ أن تقاطعه زوجته لم يأمرها هي بذلك، بل أمره هو أن يقاطعها، فأمر كعب زوجته أن تذهب إلى أهلها، وتصرف الرسول ﷺ بهذا الأسلوب يثبت هذه القاعدة المحددة للعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة.

وإذا كان الزواج بتصور الحركة الإسلامية يمثل طاقة للاستمرار بقضايا الدعوة، وإمكانية أساسية لحماية الدين باعتبار الربط بين الغيرة على العرض والدين، وأساساً في تحقيق الالتزام بالجماعة من الناحية النفسية والتنظيمية - فإن إطار الحركة هو إطار العمق النهائي في المشاعر الزوجية وصدقها، باعتبار وحدة الموقف والهدف بين الزوجين

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/٢٦٣) بلفظ (... وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ...) من طريق الليث عن عطاء عن ابن عمر، وأخرجه البزار (٢/١٧٧) كشف بلفظ (... ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ...) من طريق حنش الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس، ولهما شاهد عند الطبراني في الكبير (٢٠/٦٢) من طريق السكسكي عن معاذ ولفظه: ولا يحل لامرأة أن تأذن في بيت زوجها إلا بإذنه ولا تخرج وهو كاره. قال الهيثمي (٤/٣١٣): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٢) البخاري في (الصلاة) (٢/٣٨٢) ومسلم (٤٤٢) في (الصلاة) من حديث ابن عمر بلفظ آخر. واللفظ المذكور لأبي داود كما في سنته (٢/٢٧٣) من حديث أبي هريرة.

كأصحاب دعوة يعيشان واقعا واحدا يحيط به الخطر من كل ناحية، وبذلك يأخذ البيت استمرارية هدف الدعوة وارتفاعه، وتأخذ العلاقة الزوجية عمق الارتباط الفكري الذي قامت عليه الجماعة المسلمة.

ونواصل بحث آثار البيت في الفكر والحركة، فنأتي إلى الإحساس بالأبوة وأثره في الاعتقاد والحركة ونبدأ بناحية الاعتقاد.

فالإحساس بالوالدين يعمق في الإنسان الإحساس بالعبودية لله - سبحانه - إذ أن العبودية في حقيقتها هي الخضوع لله والإحساس بسلطانه علينا ؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ عندما يقر بعبوديته لله فإنه يقر كذلك بعبودية والديه ليزداد الإحساس بالعبودية عمقا، فيقول: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك) ^(١).

فيتضح من الحديث كيف أن الإحساس بسلطان الله - الذي عبر عنه الرسول ﷺ: (ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك) - بدأ بإقراره بعبودية والديه.

ومن هنا كان الإحساس بالوالدين حماية للإنسان من فقدان الإحساس بسلطان الله علينا، حيث أن فقدان هذا الإحساس هو سبب الجبروت والشقاوة والعصيان ؛ ولهذا يقول الله - سبحانه - على لسان عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣٢)، وعن يحيى. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (مريم: ١٤)، كما كان ذكر عيسى - عليه السلام - دائما بقول الله: (عيسى ابن مريم) من أساليب الإثبات لعبوديته.

غير أن هناك موقفا آخر يؤكد قيمة الإحساس بالوالدين كحماية من الغرور، وهو موقف يوسف - عليه الصلاة والسلام - في لحظة التمكين عندما سجد له إخوته، فكانت معالجة هذا الموقف أن يوسف رفع أبويه على العرش ؛ ليشعر بسلطان الله عليه، وعبوديته له، ومن هنا كان الإحساس بالوالدين ملازما لعبوديتنا لله في قوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد (١/٣٩١) والحاكم (١/٥٠٩)، وابن حبان (٣٢٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وهو المعروف بدعاء الهم .

وكان معنى الشكر للوالدين ملازماً لمعنى الشكر لله في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (لقمان: ١٤).

وما سبق يبين أثر الإحساس بالوالدين في الاعتقاد.

وندخل في مجال الحركة حيث يغرس هذا الإحساس في نفس الداعية، خوفاً وقلقا على الإنسان الذي يدعوه؛ ولهذا يصور الله - سبحانه - مدى حرص الذين يعلمون الحق على الذين لا يعلمون في صورة اللذين يدعوان ولدهما إلى الإيمان: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْهِ أَفْ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبَلَّغَ أَمْرًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الأحقاف: ١٧).

وعلاقة الأبناء بالآباء تغرس في النفوس الإحساس السليم بالسلطة، فان كانت سلطة شرعية ممثلة في والدين مؤمنين، وجب الخضوع لهما وطاعتهما، وان كانا غير ذلك، وجب الخروج عليهما؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثَمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: ١٥)، وبذلك يصبح للوالدين الأثر الكبير في شخصية الفرد وعلاقته بالسلطة، فيصبح الخروج على السلطة أو الخضوع لها بمقياس واحد هو مقياس الشريعة؛ ليتفادى الإنسان عقدة التمرد على السلطة بالباطل أو الخضوع لها بدون حق. وهذا هو أساس الدعوة وغايته.

الذرية

ثم تأتي الذرية، فنجد أن البيت بعد أن يتكون بتصور الحركة، يصبح بذاته منطلقاً للتصور الحركي عن الذرية، فالذرية في بيت الدعوة ليست مجرد إحساس بالرغبة في التناسل؛ إذ أن الإحساس بالذرية في واقع الدعوة يأتي باعتبار أن هذه الذرية هي الاستمرار البشري لواقع الدعوة، بما في هذا الاستمرار من إمكانية وطاقة، وهذا معنى ما جاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عباس: (يعنون من يعمل بالطاعة، فتقر أعينهم في الدنيا والآخرة).

وقال عكرمة: (لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين). وقال الحسن البصري- وقد سئل عن هذه الآية -: (أن يُرى الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو أختاً أو حميماً مطيعاً لله عز وجل)؛ ولهذا نجد زكريا يصرح في دعائه لله- عز وجل- بالذرية بضرورة الاستمرار فيقول: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) (مريم: ٦٥).

وكما ارتبطت قرة العين بالطاعة ارتبطت كذلك بالجهاد، وهذا نبي الله سليمان يرغب في إنجاب مائة فارس، حيث جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن سليمان قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة تتجب كل واحدة فارسا يجاهد في سبيل الله) (١). ومن هنا كان قول النبي ﷺ: (ما تعدون فيكم الرقوب؟ قال: قلنا الذي لا ولد له، قال: لا، ولكن الرقوب الذي لم يقدم من ولده شيئا) (٢) أي في سبيل الله.

(١) البخاري في (النكاح) (٩/٣٣٩)، و(الجهاد) (٦/٤٥٨) عن أبي هريرة ومسلم عنه أيضاً رقم (١٦٥٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب (البر) (١٠٦) وأحمد (١/٣٨٢، ٥/٣٦٧).

وبهذا التعريف يكون ارتباط الرغبة في الذرية بالجهاد في سبيل الله، وليس أدل على الدعوة واستمرارها بالذرية من قصة التيه الذي كتبه الله على بنى إسرائيل ؛ إذ إن المقصود من هذا الحكم كان إنهاء وجود الجيل الضعيف وإنشاء جيل قوى، وهو الذرية التي ولدت في التيه، والذين تم على أيديهم فتح بيت المقدس، كما جاء عن ابن كثير: (فلما انقضت المدة - أي مدة التيه - خرج بهم يوشع بن نون - عليه السلام - أو بمن بقى منهم وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثاني - يعنى الذرية القوية)، وفى رواية ابن أبى حاتم: (فهلك كل من جاوز الأربعين سنة - يعنى الذرية الضعيفة).

والذرية هي الرصيد الفطري الذي تقوم عليه الدعوة ؛ ولهذا دعا نوح بهلاك القوم لما رأى هذا الرصيد الفطري يحترق، وقال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧) .. ولهذا أيضا لم يدع النبي ﷺ على قومه لما كان عنده أمل في ذرية هؤلاء القوم. فعندما نزل ملك الجبال على الرسول ﷺ في الطائف، وقال له (مرني أن أطبق: عليهم هذين الأخشبين)، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعهم ؛ فإنني أرجو الله أن يخرج من ظهورهم من يعبدوه ولا يشرك به شيئا) (١).

والأمل في الذرية الذي نؤكد من خلال موقف نوح والرسول - صلى الله عليهما وسلم - هو في الحقيقة أساس وجود الدين على الأرض ؛ لأن بقاء الحياة الدنيا مرتبط بوجود الفطرة. بدليل قول رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع) (٢) يعنى: كافر ابن كافر، وفيه دليل كفر الناس وذريتهم ؛ إذ ينعدم الرصيد الفطري ويصير أولاد الدنيا كلها مثل أولاد قوم نوح فتقوم الساعة.

وارتباط الذرية بمنهج الدعوة يحتم التركيز على فطرة الطفولة والشباب؛ فكلما طال عمر الإنسان في جاهليته كلما بعد عن الفطرة، وقل استعدادة للالتزام بالحق والجهاد في سبيل الله ؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: (فصدقتي الشباب وكذبتني الشيوخ). وقال الله - تعالى - عن قوم موسى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ (يونس: ٨٣). وهذه الظاهرة مرتبطة بحقيقة في النفس الإنسانية يحددها الرسول ﷺ بقوله:

(١) رواه مسلم (١٤٨) في الإيمان عن أنس.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي رقم (٢٢٠٩) وأحمد في المسند (٥ / ٣٨٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(يكبر الإنسان ويكبر معه شيئان، المال والحياة)^(١).

ومما لاشك فيه أن حب المال وحب الحياة هما الداءان الأوليان في معرفة الحق والالتزام به، وهذا ما يحتم على أصحاب الدعوة اعتبار فترة الطفولة والشباب فرصة أساسية في حياة الإنسان؛ ولهذا فرح المسلمون فرحاً شديداً بمولد عبد الله بن الزبير - وهو أول مولود في المدينة بعد الهجرة - وذلك لأن اليهود وهي التي تعلم قيمة الذرية في الدعوة وأثر الآباء في الأبناء - هي التي حاولت بالسحر أن توقف الاستمرار البشري للدعوة الإسلامية؛ ولهذا جاء في صحيح البخاري^(٢) أنه لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود ولد في المدينة فرح المسلمون فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم إن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم، غير أنه لكي تكون الذرية امتداداً بشرياً قوياً للدعوة الإسلامية كان لابد من الربط بين أسس التربية الإنسانية وضرورات الدعوة، حتى تصبح هذه التربية تهيئة فعلية للممارسة الصحيحة لتلك الدعوة، والاستعداد لتحمل تكاليفها، ومن أجل الذرية تكون التربية ..

أسس التربية :

والأساس العام في التربية هو حقيقة التوازن .

لأن هذه الحقيقة أساس الخلق، سواء في مجال البناء الكوني أو البناء الإنساني، حيث أن العلاقة بين البناء الكوني والإنساني حقيقة ثابتة ذكرها ابن القيم في كتاب الفوائد حيث يقول: إن الإنسان هو الغاية التي خلق الله سبحانه لأجلها ما سواه من السماوات والأرض والقمر والنجوم والبر والبحر، وأن الله سبحانه وتعالى جمع ما فرقه في العالم في آدم، فهو العالم الصغير، وفيه ما في العالم الكبير وأن الإنسان هو خلاصة الوجود وثمرته.

وبذلك تقوم تربية الأولاد على أساس التوازن باعتبار أن مرحلة التربية هي مرحلة التكوين لهذا البناء الإنساني .

ولذلك نلاحظ أن مفهوم التوازن نفسه هو مضمون أساسيات منهج التربية.

(١) متفق عليه: البخاري (١١/٢٣٩) في الرقاق، ومسلم رقم (١٠٤٧) من حديث أنس.

(٢) البخاري في (العقيقة) (٩/٥٨٧) من حديث أسماء بنت أبي بكر، وأصله في صحيح مسلم في (الأدب) رقم (٢١٤٦) من حديثها أيضاً.

فتجد التوازن بين المنع العطاء .

والتوازن بين الترغيب والترهيب .

والتوازن بين مسلمات حق الطفولة ومقتضيات التهيئة للرجولة .

إلى آخر حقائق التوازن الواضح في منهج التربية .

والآن وبصورة محددة ننتقل إلى أساسيات هذا المنهج:

أولاً: إتمام الرضاعة

وهذا الأمر له منافع كثيرة، ولكنه يمثل ضرورة مهمة للدعوة، وهي أن إتمام الرضاعة يحمي الفرد من حب الإمارة والرغبة في التسلط^(١) بدليل هذا الحديث: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة)^(٢)، ولعلنا ندرك قيمة هذا الأمر في مواجهة واقع التفرق والاختلاف.

ثانياً: التربية العقيدية

وتلقين العقيدة يقوم تربوياً على الثقة في عقلية الطفل إلى درجة القدرة على التجريد المعنوي للحقائق، فيكون الطرح العقدي البسيط على الطفل، لأن الثقة لا تعني التعقيد في المضمون أو الأسلوب .

أما دليل البساطة في تلقين العقيدة فهو سؤال النبي ﷺ لجارية صغيرة عن الله والرسالة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ بجارية له سوداء فقال: يا رسول الله إن علي رقبة مؤمنة فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: (أشهادين أن لا إله إلا الله ؟ قالت نعم، قال: أشهادين أن محمداً رسول الله ؟ قالت: نعم . قال : أتوقنين بالبعث بعد الموت ؟ قالت: نعم. فقال رسول الله ﷺ أعتقها) .

وفي إطار التلقين العقدي للطفل يجب أن ننأى بقضايا الخلاف عن أبناء الدعوة، لأن تعرضهم في طفولتهم لهذه القضايا يجعل منها خلفية فكرية لعقليتهم، بل ويجعل هذه

(١) قام مجموعة من العلماء بإجراء بعض الأبحاث والتجارب على قبائل مختلفة لبحث العلاقة بين الرضاعة وحب التسلط، وكانت النتيجة أن الفرد الذي لا تتم رضاعته ينشأ فاقداً للثقة بنفسه، تلازمه رغبة شديدة في التسلط . وقد ذكرنا هذه النتيجة باعتبار موافقتها لمذلول الحديث .

(٢) البخاري في الأحكام (١٣/١٢٥) من حديث أبي هريرة .

القضايا عندما يصطدمون بها في صغرهم محورا لحياتهم الاجتماعية بأسرها. وهذا مثل مضحك لهذه النتيجة، وهو من مضحكات الفتن، وذلك أن زوجة رجل قدرى (الذين يعتقدون أنه لا مشيئة للإنسان وأن الأمر أنف) أخطأت خطأ أخلاقياً جسيماً، فأراد زوجها أن يعاقبها ويفتك بها، فلما رأت أنها هالكة لا محالة، قالت: يا رجل! ألم تعلم أن الأمر أنف وأنه لا حيلة لي فيما فعلت، أم أنك تريد أن تقول بمذهب ابن عباس، فثاب الرجل إلى رشدته واستغفر على محاولة عقابها!.

ومن أهم أساسيات تربية الأولاد عقدياً هو تنشأتهم على حب الرسول ﷺ ذلك أن التربية على حب رسول الله ﷺ لها قيمة تربوية عليا، لأنها تحمي الشخص المسلم من التيه في مرحلة اختيار المثل - مرحلة الشباب - فيمنعه ذلك أن يتأثر بأي شخصية أخرى مهما بلغ شأنها ويصبح رسول الله ﷺ هو القدوة والأسوة الحسنة.

ولعل النص القرآني في التعقيب على التأسى برسول الله هو الذي يحدد العلاقة بين هذا التأسى وبين الغاية النهائية للمسلم . وهي الله واليوم الآخر . فقالت الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

وأساس الارتباط بين التأسى برسول الله وتحقيق غاية المسلم؛ هو أن هذا الحب يحقق أعمق بُعد عاطفي للتصور الاعتقادي في كيان الإنسان المسلم . ولعل حادثة ابني عفرأ دليل على قيمة الانطلاق من هذا الحب في واقع الدعوة .

أخرج الشيخان عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال يا عماه! أتعرف أبا جهل؟ فقلت نعم وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه؟ فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله، قال كل منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما قال: لا، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله) أخرجه البخاري ومسلم والحاكم والبيهقي عن

عبد الرحمن بن عوف بنحوه .

ولعلنا نلاحظ أن الاثنين كانا مندفعين إلى غايتهما من الإحساس بالألم من سب أبي جهل لرسول الله ﷺ، حتى بلغا هذه الغاية التي كانت ولا شك بعيدة .
فالطرف الذي يسألون فيه عن بغيتهم كان ظرفاً قتالياً ... وبغيتهم لم تكن شخصاً عادياً، بل كانت رأس الكافرين، الذي كان ولا شك محاطاً بسياج من الحماية العسكرية .
أو بتعبير راوي الحديث (يجول في الناس) ومع ذلك بلغا بغيتهما ونجحا في المهمة.

ثالثاً: تحقق العبودية لله

العبودية لله هي الغاية النهائية للدعوة، لذلك يقول رسول الله ﷺ: (علموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع)^(١)، وهذا الأمر هو الذي سيغرس في نفس الولد الإحساس بالتناقض بينه وبين أي مجتمع لا يقيم الصلاة، وسيبقى الإحساس بالتناقض آخذاً صورة العمل للتمكن لهذه الدعوة حتى ينتهي هذا الإحساس بإسلام المجتمع وإقام الصلاة:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (الحج: ٤١) .

كما أن الأمر بالعبادة هو منبع القدرة الفعلية على تحمل تكاليف الدعوة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٣-١٥٤) .

والأمر بالصلاة هو الذي يحمي الحركة الإسلامية - عند الجهاد والقتال - من الخروج عن طبيعتها وغايتها، إذ إن الرسول ﷺ عندما سئل أي العمل أفضل قال: (الصلاة على وقتها، قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)^(٢).

فيأتي الجهاد من منطلق العبادة وبعد بر الوالدين، فلا يخرج القتال عن هدف تحقيق العبودية لله في الأرض، وحماية المجتمع المسلم القائم بالبر، وعلى هذا فالمسلم الذي يقيم الصلاة هو الذي يندفع بكل طاقته الإنسانية لتحقيق غاية الدعوة - إذا كان يعيش واقعاً

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢/١٦٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وسنده ونحوه أخرجه الترمذي في (الصلاة) (٤٠٧) وأبو داود أيضاً من حديث سبرة وسنده صحيح . وهو شاهد قوي لحديث عمرو بن شعيب .

(٢) البخاري في (الصلاة) (٢/٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

جاهلياً - وتحقيق التوافق بين تصوره والواقع الذي يعيشه، ويتزعم إحساسه بالتناقض بينه وبين المجتمع الجاهلي بعملية التغيير التي تمثل الحركة الإسلامية .
وعنصر الضرب من أجل الصلاة معناه التدخل المباشر في تكوين الشخصية الإنسانية بما يتفق مع غاية الدعوة، وهذا ينمي في تلك الشخصية ممارسة الإذعان للحق. والحقيقة أن ما يقابل ضرب الأولاد على الصلاة هو النهي عن ضربهم على كسر الآنية.

فقال ﷺ: (لا تضربوا أبناءكم على كسر الآنية؛ فإن لهذه الأشياء أجل) .. وهذا التقابل في غاية الأهمية .. ذلك لأنه ينشئ في نفس الطفل معياراً أساسياً للأهمية والقيمة في حياته.

فالعبادة أهم ما يمكن أن يكون في حياة الطفل أما الأمور المادية الدنيوية، فلا يُضرب عليها، فينشأ الشخص وقد ترتبت في حياته الأمور حسب أهميتها.
ولكن الصلاة بالنسبة للطفل يجب أن تكون في المسجد وفي هذا قيمة تربوية عظيمة، نجدها بداية في تقوية الإحساس بالرجولة حيث يخالط الرجال في المسجد.
ولكنه لا يتجاوز بهذا الإحساس من هم أكبر منه، حيث يعرف مكانه بينهم من خلال ترتيب الصفوف، فهو يرى صف الرجال ثم الأطفال.

وعندما يكبر ويتقبله المصلون الرجال في صفوفهم فإن هذه الخطوة ستكون أعظم موقف في حياته التربوية، حيث يشعر بذاته ورجولته من خلال عبادته ومسجده.
وعندما يشارك الرجال في مجلس العلم .. ويفتح الله عليه بفهم أو كلام، يشعر أن علاقته بمن يسمعه ممن هو أكبر منه سناً، علاقة رحمة وتقدير، وأن ترتيب الصفوف لا يعني الامتihan أو التحقير لأنهم وهم يرجعون به إلى صفوف الأطفال .. هم أنفسهم يسمعون له، ويفرحون بفهمه ويقرون بصوابه.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهو مثل المؤمن .. حدثوني ما هي؟ قال عبد الله: فوق الناس في شجر البوادي .. ووقع في نفسي أنها النخلة، فقال النبي ﷺ: هي النخلة!، فاستحييت أن أقول. قال عبد الله: فحدثت عمر بالذي وقع في نفسي فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا (١).

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

كما أنه عندما يجلس في مجلس علم فإنه يمارس تحصيل العلم بإرادته ورغبته فيحب العلم، ويسعى إليه ويمتد من خلال هذه الإرادة والرغبة والحب إلى جميع مجالات العلوم النافعة .

وعندما يحفظ القرآن والعلم بسهولة ويسر لأنه في بداية عمره وكمال طاقته الذهنية، فإنه يظل واثقاً بعقليته وذاكرته وذهنه طوال عمره .

وهذا أبو هريرة - رضي الله عنه - يلتقي بـ غلام فيظنه مثل الغلمان، حتى يكتشف فيه الرجولة، فيتعامل معه معاملة الرجال، وفي المسجد كانت التجربة ... وكان الدرس ... عن أبي أيوب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: دخلت مع المسجد يوم الجمعة، فرأى غلاماً، فقال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد، قال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد . قال: فتقعد حتى يخرج الإمام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الملائكة تجيء يوم الجمعة، فتقعد على أبواب المسجد، فيكتبون السابق والثاني والثالث، والناس على منازلهم حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام طويت الصحف) (١).

رابعاً: المعاملة

وتحدد - هنا - الكيفية الصحيحة للتعامل مع الأولاد والمدخل إلى هذا التعامل هو الجانب العاطفي لهم؛ لأن الطفل لا يشعر بعلاقته بغيره إلا من خلال إحساسه بحياته وظروفه.

وهذا رسول الله ﷺ يرجع من إحدى الغزوات منتصراً .. ولنا أن نشير إلى الحالة النفسية لرسول الله ﷺ كقائد منتصر راجع إلى مدينته.

حيث نفاجاً بانتقاله من هذه الحالة، وتوجهه إلى غلام من الأنصار كان له عصفور يريه، وكان رسول الله ﷺ قد ترك المدينة وعصفور الغلام مريض ..

فإذا به يسأل الغلام، ويكون ذلك أول ما فعله بعد الرجوع من الغزو:

يا أبا عمير .. ما فعل النغير؟!

وكأن عصفور الغلام كان يشغل رسول الله ﷺ وهو في أخطر حالات الانشغال بالحرب

والقتال.

(١) رواه أحمد.

فلا بد أن يشعر هذا الغلام أنه ليس على هامش الحياة ... وأنه في صلب المجتمع، بل وقمة الاهتمام به، لأنه اهتمام رسول الله وهو في أهم المهام .. هكذا يشعر أبناؤنا بذاوتهم.

ولم يكن أمر بسيط أن يعلق رسول الله ﷺ ثبوت صفة الخيرية للأمة على العلاقة العاطفية بين الرجال والأبناء حيث يقول: (لن تزال أمتي بخير ما دام صغيرها يوقر كبيرها وكبيرها يعطف على صغيرها) .

ويتم أساس التعامل .. أساس الآداب .. وأهمه: آداب السلام على الغلمان. عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ مر على غلمان فسلم عليهم وفي رواية فمر على صبيان فسلم عليهم .

وابتداءً بالسلام، نبلغ الحد النهائي في الحق الاجتماعي للأولاد، ويمثل هذا الحق .. هذا الحديث.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: (أن رسول الله عليه وسلم أتى بشارب فشرّب منه - وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ - فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبك منك أحداً، قال فقلته رسول الله ﷺ في يده) .

وكل ما سبق من أساسيات في العقيدة والعبادة والتعامل والآداب، لا يجب أن نتجاوز به الواقعية التامة في التعامل مع الأطفال. فالطفل هو الطفل.

لا مانع من شغله باللعب عن الجوع في الصيام .. فيكون اللعب معيناً له على الصبر. فلا نترك الطفل لحقيقة الصبر دون أن نخفف عنه الإحساس به .. ولكننا حين نضع له اللعب، فإننا لا نخرج بها عن غايتنا التربوية فيه فاللعب له أحكام.

كما قال رسول الله ﷺ: (كل لهو هو باطل ما عدا مداعبة أهله وفرسه ورمية بسهم) . قد يكون لعب الأطفال من جنس اللهو الذي يلهو به الكبار، فيكون لعب الذكور كله متجه نحو تحقيق خصائص الرجولة، أما لعب الإناث فإنه يكون متجهاً نحو تحقيق خصائص الأنوثة فيهن .. وهذا هو حق اللهو، غير أن التربية لها بداية زمنية سابقة على كل هذه الأساسيات.

وهذه البداية تبدأ مع الولادة والرضاعة ..

فمنذ لحظة الولادة التي يكون فيها الأذان أول ما يطرق سمعه ..

ومروراً بالعقيقة .. التي يسمى فيها الطفل ويصير له نصيب من اسمه، ويقص فيها من شعره، ويُتصدق بوزنه ذهباً أو فضة، فتحدد علاقته بالذهب من خلال الشعر المتساقط منه، ليبقى المسلم طول عمره بعد ذلك مالكا للمادة وسيدا عليها .. لا يعلوه أي قيمة مادية مهما بلغت، ويذبح له فيها الذبيحة .. تكريماً له ووليمة للمسلمين المجتمعين من أجله الفرحين به، وذلك عندما يرى كل طفل ما يصنع للمولود، فيعرف أنه قد صنع له مثلما يرى.

والتحديد المنهجي لمكانة الذرية في تصور الدعوة هو الذي يحقق أكبر أثر لهذه الذرية على الواقع الجاهلي ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ هذه المكانة عندما أراد أن يجعل من الشيطان لعبة لأولاد المدينة كما في الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي الدرداء قال:

(قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك، ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، ثم بسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله من قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، فقال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك فلم يستأخر ثم قلت ذلك فلم يستأخر ثم أردت أخذه فلولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة).

وكان مضمون الموقف هو أن (الأولاد) عندما يكونوا أولاد (المدينة) وهي منطلق الدعوة الزماني والمكاني من بدايتها ومعقلها الأخير حتى نهايتها مع نهاية الزمان. عندما يكون الأولاد أولاد هذه المدينة يصير إبليس هو اللعبة.

خامساً: قوة الشخصية:

قوة الشخصية القادرة على مواجهة الحياة دون ضعف، من خلال تكوين هذه الشخصية بطاعة الله والإيمان بالقدر، ولذلك يقول الرسول ﷺ لابن العباس:

(يا غلام ! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذ سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا

بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف^(١).

وهذا الحديث له صلة مباشرة بطبيعة الدعوة من حيث أن الذي يمارس من هذه الدعوة يجب أن يكون مؤمناً بقضاء الله وقدره إيماناً قوياً ثابتاً.

سادساً: الممارسة الفعلية للدعوة:

وهذه كانت نصيحة لقمان لابنه، وقيمة هذه النصيحة هي تنمية الإحساس بأي خطأ، والقدرة على الدعوة إلى كل خير حفاظاً على شخصية الابن:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧).

وفي ذكر تلك النصيحة بصيغة توجيه من الأب إلى الابن محاط بمشاعر الأبوة في مجال الدعوة، حيث إن حرص الدعاة على الناس لا يقل عن حرص الأب على ابنه، ولذلك جاء في تفسير هذه الآية: فقد أتاه الله الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف^(٢) .. وهكذا الدعاة يشفقون ويحبون ويمنحون أفضل ما يعرفون.

وهناك في مسألة الذرية أمر خطير، وهو أن الذرية تنشئ في الإنسان إحساس العيلة، وهذا الإحساس يجب معالجته، إذ إنه من الضروري أن يسعى المسلم الداعية إلى قوت عياله مثلما يسعى تماماً في مصلحة الدعوة، لأن توافر القوت سيجعل واقع الداعية الاجتماعي منطلقاً حراً، ولهذا كان من الإعداد العملي للرسول ﷺ لتحمل الرسالة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٦-٨)، لأن احتياج الإنسان لقوت عياله سيتولد عنه إحساس بالذل يتنافى مع طبيعة الدعوة والاستعلاء بالإيمان.

على أنه من المهم أيضاً أن يكون هذا السعي محدوداً بالاحتياج الفعلي، حتى لا يتعدى هذا السعي تلك الحدود، فيتحول إلى انشغال بالمال والأهل مثلما قال المنافقون: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ (الفتح: ١١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في مسنده (١/٢٩٣)، والحاكم (٣/٥٤١) كلهم من حديث ابن عباس.

(٢) ابن كثير ص: ٣٢٨ ج ٦.

ورسول الله ﷺ يعطينا المقياس الذي نفصل به بين السعي الضروري والانشغال الخطير، فيقول: (من أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، يملك قوت يومه فقد ملك الدنيا بما عليها) ^(١).

وبعد أن لمسنا الآثار الضخمة الطيبة للبيت في واقع الدعوة فكراً وحركة ..
ترتفع في نفوسنا قيمة البيت ارتفاعاً يحقق الإحساس بضرورة حمايته ..
وينشئ شعور الحذر من تخريبه ..

(١) حسن لغيره: أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١)، والحميدي رقم (٤٣٩) وهو في الخلية (٥/٢٤٩) وابن حبان (٦٧١) في صحيحه من حديث أبي الدرداء وللحديث طرق يتقوى بها ويرتقي .

حماية البيت

ولكن بيت الدعوة في الحقيقة .. بيت لا يعرفه الخراب، لأنه يتكون ومعه أسباب حمايته، وما علينا إلا أن نفهم هذه الأسباب ونأخذ بها: وسنبداً بذكر أسباب أصلية تتبعها بأسباب أخرى محددة من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

أما الأسباب الأصلية فهي الحب والرضا:

وعندما نذكر الناحية الوجدانية باعتبارها سبباً من أسباب حماية البيت، إنما يكون ذلك بنظرة معينة إلى تلك الناحية، فالمشاعر الزوجية هي قمة الإحساس بالحب الإنساني، وكذلك الحب بين الزوجين إطار محدد لا يعيش فيه إلا الزوجان، وهذا الفارق الجوهرى بين الحب الإنساني عموماً وبين المشاعر الزوجية قد بينه النبي ﷺ بقوله من ناحية الزوجة: (إن للرجل في المرأة شيء، ليس إلا له)^(١)، ومن ناحية الزوج لزوجته فقد وضع عندما سئل النبي ﷺ عن أحب الناس إليه فقال: (عائشة، قالوا: من الرجال؟ قال: أبوها)^(٢).

فالحب بين الزوجين هو أن يكون الزوج أحب الناس إلى زوجته، والزوجة أحب الناس إلى زوجها، وهذا يختلف عن مجرد الحب المتبادل الذي يكون بين الناس . حتى في الجنة تكون هذه حقيقة الحب بين الأزواج، ولهذا تُعبر زوجة المؤمن في الجنة فتقول: (والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك)^(٣).

والحب بين الزوجين ليس مجرد سبب لقيام العلاقة الزوجية فقط، بل إن العلاقة الزوجية تعتبر مصدراً ذاتياً لهذا الحب، وهذا معناه أن مشاعر الحب تزداد بين الزوجين باستمرار هذه العلاقة، وهذا هو الذي جعل الحب سبباً أصلياً لحماية العلاقة الزوجية،

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنايز (١٥٩٠) ن والحاكم في (معرفة الصحابة) (١٦ - ٤/٦٢) ورواه أبو داود .

(٢) متفق عليه: البخاري في المناقب (٧/١٨)، ومسلم في (الفضائل) (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٣) ابن كثير ط ٣ ص: ٢٨١.

ولذلك جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تطلب الطلاق من زوجها، ولم يكن قد تم بينهما فترة تكفي لتحقيق المودة القوية، فرفض رسول الله ﷺ هذا الطلاق قائلاً: (لا، حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ ويذوق عُسَيْلَتِكَ) (١).

وتذوق العسيلة - الذي هو الجماع - أقوى منافع الحب إذا كان سليماً في العلاقة الزوجية، وأخطر أسباب الفشل في تلك العلاقة إذا كان خطأ، بدليل أن رسول الله ﷺ أقر امرأة أخرى على الطلاق من زوجها لما فشلت بينهما المعاشرة الزوجية، إذ قالت المرأة: (يا رسول الله! إن فلاناً لا أعيب عليه خلقاً ولا ديناً، ولكن أكره الكفر بعد الإيمان)، وفي رواية أخرى: عللت طلب الطلاق مباشرة بفشل المعاشرة، ولما كان الأمر بهذه الخطورة كان لابد من الاهتمام بالمعاشرة الزوجية، غير أن الاهتمام يجب أن يركز على وصايا النبي ﷺ في هذا الأمر وأهمها:

أولاً: أن يكون الجماع في جو عاطفي يملؤه الحب والانسجام، ويقول الرسول ﷺ: (لا يضرب أحدكم زوجته ضرب الأمة في أول النهار حتى يأتي آخر الليل فيضاجعها) (٢). وكما يجب أن يسبق ويلازم الجماع جو عاطفي وجداني، وهو مفهوم الحديث، فإن هذه العاطفة وذلك الوجدان يجب أن تبقيا دائماً حتى وإن لم يكن هناك جماع، وهذا حديث عائشة الذي تصف فيه معاملة رسول الله ﷺ وهو في حال حيضها، حيث لا يكون جماع، إذ تقول (كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه الذي كنت أشرب منه) (٣).

ونواصل ذكر وصايا النبي ﷺ في الجماع ..

ثانياً: وأن يتم التزيّن، فيجب أن تكون المرأة حريصة على أن يراها زوجها جميلة، فمن صفات المرأة الصالحة قول الرسول ﷺ: (إذا نظرت إليها سرتك) (٤)، وكان النبي ﷺ يبعث عند عودته بالجيش من يخبر أهل المدينة: (حتى تمتشط الشعثاء وتستحد

(١) متفق عليه: البخاري في (الباس) (١٠/٢٦٤) ومسلم (١٤٣٣) من حديث عائشة .

(٢) متفق عليه: البخاري (٨/٧٥٥) ومسلم (٢٨٥٥) عن عبد الله بن زمعة .

(٣) أخرجه مسلم من حديث عائشة في الحيز رقم (٣٠٠) وهو عند النسائي (٦/١٤٨) وغيره .

(ولعل هذه المعاملة الراقية هي الصورة المقابلة لمعاملة اليهود للحائض حيث لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يبيتون معها في مكان واحد).

(٤) سبق تخريجه (ص: ٣٦).

المغيبة^(١)، وكان الرسول ﷺ يوصي الصحابة بالا يدخلوا على أهلهم ليلاً، إذ جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً حتى لا يفاجئهم دون إستعداد منهم للقاءه، وكان الصحابي^(٢) يقول: (كنا نتزين لنسائنا كما كانت نساؤنا تتزين لنا).

ثالثاً: وكذلك التطيب بدليل أن الرسول ﷺ كان دائماً يمس طيباً، ويعتني بالرائحة، وخصوصاً رائحة الفم، حتى أن نساء الرسول ﷺ لما غرن من زينب بنت جحش، لأن الرسول ﷺ كان يأكل عندها عسلاً اتقن جميعاً على أن يقلن للرسول ﷺ: (رائحة فمك مغافير)^(٣) فاغتم النبي ﷺ بذلك حتى حرم على نفسه العسل، ونزل القرآن ينهاه عن التحريم^(٤).

رابعاً: كما تستحب المداعبة بدليل قول الرسول ﷺ لجابر ابن عبد الله: (أما تزوجتها بكرةً تلاعبها وتلاعبك)^(٥).

خامساً: كما تجب مراعاة التسمية، بدليل قول الرسول ﷺ: إذا أتى أحدكم أهله فسمي الله، وقال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد، لا يضره الشيطان^(٦).

و لعلنا نلاحظ أن الأمر إلى الزوج باعتبار أن الزوج هو الفاعل، ومن السنة الجماع عند الرغبة مباشرة، لأن الرسول ﷺ يبين أنه: (إذا رأى أحدكم امرأة - رؤية المفاجئة - فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه)^(٧).

ويقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، وذلك لتفادي خطورة كبت الرغبة^(٨).

(١) البخاري في (النكاح) من حديث جابر رضي الله عنه . جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، وفي رواية ليلاً يتخونهم .

(٢) القائل: عبد الله بن عباس أخرجه ابن جرير (٤/٥٣٢) موقوفاً عليه .

(٣) نبات له رائحة كريهة .

(٤) البخاري في (النكاح) (٩/٣٧٤) ومسلم (١٤٧٤) .

(٥) متفق عليه: البخاري في (النكاح) عن جابر، ومسلم في الرضاع أيضاً رقم (١٤٦٦) باب (١٥) .

(٦) البخاري عن ابن عباس (٩/٢٢٨) ومسلم عنه أيضاً و (١٢٣٤) .

(٧) أخرجه مسلم في النكاح رقم (١٤٠٣) من حديث جابر .

(٨) اراجع كتاب الطب النبوي لابن القيم (فوائد الجماع عند الرغبة مباشرة) .

سادساً: أن لا يتركها بعد أن يقضي حاجته منها قبل أن تقضي زوجته حاجتها أيضاً، لما روي أن النبي ﷺ قال: (إذا جامع أحدكم زوجته، فليصدقها (يعني فليجاملها بصدق) ^(١) فإن قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فليصبر حتى تقضي حاجتها) ^(٢).
و يفضل الاعتدال بمعنى أن تكون الرغبة طبيعية، وأن يكون الجماع في حدود القدرة الإنسانية بلا إرهاق زائد، ولا يدخل في هذا أي عامل غير تلك الرغبة الطبيعية .

ومع تذوق العسيلة، ثم الحمل وانتظار الولد، ثم الولادة يقوى الحب حتى تصبح المشاعر في قمة التألف، ويتحقق التوافق التام في التفكير والإحساس بين الزوجين، ونراها كما وصفها القرآن تصل إلى حد دعاء الزوجين بدعاء واحد ومشاعر واحدة ولسان واحد. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

و لعل وصول العلاقة الزوجية إلى ذلك الوجدان عند الولادة من أهم أسباب الحكم الشرعي الذي يقضي بتحرير الجارية إذا ولدت من سيدها، لأن هذه العلاقة الراقية وجدانياً لا يتفق معها أن تظل (أم الولد) رقيقاً يُباع ويُشترى.

والتعبير عن مشاعر الحب من الأمور التي تزيده وتنعشه، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ لنا قوله: (إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه) ^(٣). أما عندما يكون بين الزوجين فيجب أن يكون التعبير صفة دائمة وبكل الأساليب، وهذا أحد أساليب النبي ﷺ مع عائشة، إذ يقول لها: (إني أعرف عندما تكوني غاضبة مني تقولي: ورب إبراهيم، وعندما تكوني راضية عني تقولي: ورب محمد) ^(٤)، وتبادلته عائشة مشاعر الاهتمام الدقيق بمشاعرها، فتقول: (والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/١٩٤) عن طريق (ابن جريج) عن أنس أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٤٢٠٠) و (٤٢٠١) من طريق ابن جريج عن سمع أنس عن أنس مرفوعاً وفيه مجهول، ولذلك قال الهيثمي في المجمع (٤/٢٩٥): (رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات).

(٢) حتى تشعر الزوجة برغبة الزوج الصادقة والحقيقة فيها.

(٣) أخرجه الترمذي (٧/٧١) تحفة في الزهد وقال: حسن صحيح وأبو داود في الأدب (١٤/٢٩) من حديث المقدم بن معد يكرب وسنده صحيح وأخرجه أيضاً الحاكم (٤/٧١) وسكت عليه هو والذهبي، وأحمد (٤/١٣٠).

(٤) متفق عليه: البخاري في النكاح (٩/٣١٠)، ومسلم (١٥/٢٥٣) من حديث عائشة باختلاف في اللفظ.

ولا حرج من الإعلان عن الحب بين الزوجين في الواقع المحيط بهما، وقد مر بنا الحديث الذي سألت فيه الصحابة رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه قال: عائشة، قالوا: من الرجال؟ قال أبوها^(١)، ولعلنا نلاحظ أن تقرير رسول الله ﷺ بأن عائشة أحب الناس إليه كان بلا حرج، كما نلاحظ أن الرسول ﷺ لما ذكر أبا بكر باعتباره أحب الناس إليه من الرجال ذكره بصفته أبا لعائشة فقال: أبوها.

وقد كان حب الرسول ﷺ معروفاً لدى الصحابة إلى درجة اعتبار هذا الحب مقياساً لحب الخير كما جاء في الحديث: عن أم سلمة رضي الله عنها أن نساء النبي ﷺ كلمنها لتكلم النبي ﷺ أن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وتقول له: إنا نحب الخير كما تحب عائشة، فكلمته فلم يجيبها، فلما دار عليها كلمته أيضاً، فلم يجيبها، وقلنا: ما رد عليك؟ قالت: لم يجيبني . قلنا: لا تدعيه حتى يرد عليك، أو تتظرين ما يقول فلما دار عليها كلمته، فقال: (لا تؤذوني في عائشة، فإنه لم ينزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن إلا في لحاف عائشة)^(٢).

وأما أخطر الأمور على مشاعر الحب التي يجب أن ننتبه إليها فهو استغلال تلك المشاعر ولو بأدنى مدى، وسنذكر موقفاً وقفته السيدة عائشة مع رسول الله ﷺ ارتكزت فيه على حبه لها، فغضب منها، فقد كان الرسول ﷺ يحب أن يمسك الجمل الذي يحمل هودج السيدة عائشة . وقد كانت كل زوجات الرسول ﷺ تعلم ذلك، فقالت لها حفصة ذات مرة: هلا تبادلنا الهودج، فركبتي أنتي هودجي، وركبت أنا هودجك، فنظر ماذا يفعل رسول الله ﷺ، فقالت عائشة: أفعّل، فلما ركب حفصة مكان عائشة وسحب الرسول ﷺ الجمل على أن عائشة في الهودج نظر فوجد حفصة، فغضب، وعُرف ذلك في وجهه إلى حد أن قالت عائشة: (رب سلط عليّ عقرباً أو حية تلدغني)، وذلك بعد أن وضعت رجلها في الأذخر الذي تكثر فيه الهوام، فدعت على نفسها قبل أن يقول لها الرسول: لماذا فعلت ذلك؟^(٣)، ولعلنا نلاحظ أن حفصة دخلت إلى عائشة من الناحية التي تحب عائشة تأكيداً دائماً، وهي حب رسول الله ﷺ لها.

(١) متفق عليه وسبق تخريجه .

(٢) رواه النسائي في كتاب عشرة النساء برقم (٣٦٨٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (النكاح) (٩ / ٣١٠) باب (٩٧) من حديث القاسم عن عائشة .

ومع الحب يأتي الرضا، فالزوجة عندما تكون راضية عن زوجها وعيشتها فإن هذا الرضا يمثل في حماية البيت طاقة الدفاع الكامل، وإن كانت غير راضية فستخرب بيتها بيدها، ولذلك نجد أن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عندما زار ابنه إسماعيل وجده قد تزوج، فسأل زوجته عن الحال والمعيشة، فقالت: الحال في ضيق، فرأى إبراهيم أنها غير راضية، فقال لها: إذا جاء إسماعيل فأقرئيه مني السلام، واطلبي منه أن يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل أخبرته بما حدث، فقال لها: أنت العتبة، الحقي بأهلك وطلقها^(١).

فتجد في هذا الحديث أن إبراهيم سمع قول المرأة فأمر إسماعيل بأن يطلقها دون أن يتبين حالتها فعلاً، لأن المسألة لا تتعلق بحالة الزوجة الفعلية، بل تتعلق بإحساسها بحالها ومعيشتها، وقد كان هذا الإحساس وحده كافياً لأن يحكم إبراهيم الخليل بطلاقها، إذا إنه لا أمان للمرأة التي لا تشعر باستقرارها وسعادتها مع زوجها في بيته، كما أن إسماعيل لم يتردد في تنفيذ ما طلبه إبراهيم، لأنه يعلم أن هذا هو الحق.

و لكن كيف يتحقق رضا الزوجة ؟

والإجابة باختصار أن رضا الزوجة يتحقق بأن تجد المرأة طمأنينة نفسها وجمال أنوثتها مع زوجها وفي بيتها، وبأن يسد الرجل احتياجاتها المادية ويحقق لها رغباتها النفسية، وقد قال النبي ﷺ حديثاً يعطي الإشارة الحقيقية إلى خطر المرأة عندما تحتاج، فقال: (كان فيمن كان قبلكم ثلاثة نفر كانوا في سفر فأمطرت عليهم السماء، فقالوا نخبتى في هذا الكهف فتدحرجت عليهم صخرة، فسدت عليهم الكهف، فقالوا تعالوا ندعو الله بصالح أعمالنا عسى أن يفرج عنا، ...

فكان دعاء أحد الثلاثة هو موضع الاستشهاد بالقصة .. قال:

اللهم إنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها أشد ما يحب الرجال النساء فراودتها عن نفسها، فأبى، فاحتاجت إليّ، فجاءتني، فراودتها عن نفسها، فرضيت حتى إذا كنت بين شعبها الأربع قالت: يا هذا اتق الله ولا تتفص الخاتم إلا بحقه، فقمتم عنها وأنا أشد ما أكون حباً لها، اللهم إن كنت تعلم أنني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا

(١) البخاري في (الأنبياء) (٣٩٦ - ٦/٣٩٧) من حديث ابن عباس .

ما نحن فيه، فتدحرجت الصخرة (١).

وواضح من الحديث أن هذه المرأة لم يكن عندها أي رغبة في الانحراف بدليل أنها رفضت في المرة الأولى، وذكّرت بتقوى الله في المرة الثانية، وهذا معناه أن ذهابها إليه كان قهراً بسبب الاحتياج، وهذه هي حقيقة الخطر عند احتياج المرأة، إنها تخضع وتضعف أمام الانحراف دون أدنى رغبة فيه، ويترتب على هذا أن تمارس المرأة الانحراف بغير ضعف أمام شهوتها بل بالضعف أمام احتياجها المادي.

و يذكرنا هذا الحديث بقيمة قول عمر: (لئن عشت في العام المقبل لأجعلن لأرامل الكوفة جُعلاً) لنعلم أن الذي كان يريده عمر هو تفادي خطر الاحتياج عند المرأة في مكان أخبر الرسول ﷺ أن منه ستخرج الفتن (٢)، ومن أجل خطورة احتياج المرأة نجد أن النبي ﷺ يجيز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها دون علمه وبقدر حاجتها إذا كان بخيلاً، فقد جاءته هند - زوجة أبي سفيان - وقالت: إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل يجوز لي أن آخذ من ماله دون علمه؟ فأذن لها النبي ﷺ بقدر حاجتها (٣).

و الواقع أن المنع من الأهل هو في الحقيقة اغتصاب لا يرضاه الله، إذ إن الزوج عندما يُرزق إنما يرزق أهله، بدليل قول النبي ﷺ: (إنما تُتَصَرَّون وتُرزَقون بضعفائكم) (٤). ومن هنا كان قول النبي ﷺ: (دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقة، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك) (٥)، ولعل الصورة التي التقطها قول رسول الله ﷺ: (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك لك بها صدقة) (٦) - توضح لنا كيف تكون الكرامة والوجدان في سد احتياج المرأة.

والحقيقة أن سعي الزوج لسد احتياج الزوجة يمثل عند المرأة دليل اهتمام بها، وهذا الجانب النفسي لا يقل شأنًا عن الجانب المادي بل يزيد، وهذا الجانب يتحقق عند

(١) البخاري في الإجارة (٤/٤٤٩)، ومسلم في (الذكر والدعاء) رقم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قال رسول الله ﷺ (إن الفتن ستخرج من المشرق وأشار إلى الكوفة وقال: منها يخرج قرن الشيطان) أخرجه البخاري (١٣/٤٥) في الفتن، ومسلم (٢٩٠٥) عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه: البخاري (٩/٥٠٧)، ومسلم رقم (١٧١٤).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد ما (٦/٨٨) بلفظ (هل تنصرون إلا بضعفائكم) لا من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٥) رواه مسلم في الزكاة ٣٩، أحمد (٤٧٢، ٧٣/٢) ووردت رواية أخرى لهذا الحديث في مسلم في (الزكاة) ٣٥٨ و الترمذي في البر ٤٢ وابن ماجه في الجهاد وأحمد (٧٩/٩).

(٦) البخاري في (الوصايا) (٥/٣٦٣) باب (٢) من حديث سعد بن أبي وقاص وأصله في مسلم في الوصية (١٦٢٨) من حديث سعد أيضاً.

المرأة إذا أحست أن الزوج يبلغ أقصى ما في وسعه من أجلها، أو الاعتذار الكريم عن تحقيق رغبة لها لم يتمكن من تحقيقها، وهذا هو المقصود بالقول الميسور في قول الله - عز وجل -: (وَأِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ اكْبَتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) (الإسراء: ٢٨)، أي إذا سالك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة - (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) بالوعد: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد^(١).

وبذلك يمكن الاهتداء بهذا التوجيه القرآني في التعامل مع الزوجة للاستفادة من حكمته.

وعندما تكون للزوجة رغبة نفسية ليس لها جانب مادي فيجب عدم الاستهانة بالاستجابة إليها، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (دعاني رسول الله ﷺ والحبشة يلعبون بحراهم في المسجد في يوم عيد، فقال: يا حميراء (تصغير الحمراء يريد البيضاء) أحببين أن تنظري إليهم؟، فقالت: نعم، فأقامني وراءه، فطأطأ إلى منكبيه، لأنظر إليهم، فوضعت ذفتي على عاتقه، وأسندت وجهي إلى خده، فنظرت من فوق منكبيه - وفي رواية من أذنه وعاتقه - وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة حتى شبعت)^(٢)، وبذلك نخرج بقاعدة مهمة في الاستجابة لرغبة الزوجة، فإذا كانت الرغبة مادية فيجب أن يكون تحقيقها بقدر الإشباع، وبهذه القاعدة لا نتجاوز الرغبات المادية الفعلية، ولا نقصر في تحقيقها نفسياً، وهذا هو عين الرضا.

ومن أهم الأمور التي تحقق للمرأة إحساسها مع زوجها ورضاها عن بيتها هو ألا ترى زوجها يعيبها في تصرفاتها ووظيفتها كزوجة، وعلى هذا يجب على كل زوج أن يتخلق بأخلاق الرسول ﷺ في هذه الناحية، إذ تقول السيدة عائشة عن الطعام: (ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه)^(٣).

(١) ابن كثير ص ٦٥: ٦٧.

(٢) البخاري في (العيدين)، ومسلم في (الصلوة)، (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (٩/٥٤٧)، ومسلم (٢٠٦٤) ن عن أبي هريرة.

وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فأخذ يقول: (نعم الأدم الخل) (١).

وكذلك لا ترى الزوجة زوجها يعيبها في شكلها ومظهرها، ولذلك نهى النبي ﷺ عن أن يقبّح الرجل زوجته فيقول لها: قبّحك الله.

كما يجب على الرجل أن يستجيب لطبيعة المرأة التي لا يمكن أن تتغير فيها مثل طبيعة حب المحادثة التي تعتبر من أبرز طبائع المرأة، فيتحدث على الرجل سماع حديث زوجته، وأن يُظهر تجاوباً واهتماماً وهذا حديث لعائشة سمعه رسول الله ﷺ منها استجابة لطبيعتها: (حدثنا هشام بن عروة عن عبد الله بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: جلست إحدى عشرة امرأة تعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً. قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعمر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقي).

قالت الثانية: زوجي لا أبتّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره .
قالت الثالثة: زوجي العسّثق إن أنطق أطلق .. وإن أسكت أعلق .
قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة .. لا حر ولا قر .. ولا مخافة ولا سامة.
قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد .. وإن خرج أسد .. ولا يسأل عما عهد .
قالت السادسة: زوجي إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث.

قالت السابعة: زوجي غيايا طباقاء، كل داء له داء، شجك أو فلك، أو جمع كلالك.
قالت الثامنة: زوجي .. الريح ريح زرنب .. والمس مس أرنب.
قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.
قالت العاشرة: زوجي مالك .. وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر .. أيقن أنهن هوالك.
قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع .. فما أبو زرع؟ أناس من حلي أدني، وملاً من شحم عضدي، وبجحني فبجحت إلى نفسي، ووجدني في أهل غنيمة بشق، فجعلني في أهل سهيل

(١) أخرجه مسلم في (٢٠٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وهو مما انفرد به دون البخاري

وأطيط، ودانس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأصبح، وأشرب فأنتقمح.
 أم أبي زرع .. فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح.
 ابن أبي زرع .. فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كسل شطبة، ويشبعه ذراع الجفرة.
 وبنت أبي زرع .. فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها وغيظ جارتها.

جارية أبي زرع .. فما جارية أبي زرع؟، لا تبت حديثاً تبثيثاً، ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، قالت خرج أبو زرع فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب سرياً، وأخذ خطياً أو ضحياً، وأراح علي نعماً ثرياً وأعطاني من كل رائحة زوجاً وقال: كلي أم زرع وميري أهلك، قلت فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر أنية أبي زرع .

قال رسول الله ﷺ لعائشة: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع) ^(١)، وعلى الرغم من أن حياة الرسول ﷺ لم تكن تتسع فعلاً لسماع هذا الحديث، إلا أن الرسول ﷺ سمعه مع أن الله - تبارك وتعالى - أمر المؤمنين أن يقدموا صدقة إذا أراد واحد منهم أن يتناجى مع الرسول ﷺ، وأمر المؤمنين كذلك ألا ينتظروا في بيت الرسول ﷺ حتى يطيب الطعام: (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) (الأحزاب: ٥٣).

وذلك لأن وقت الرسول ﷺ زمن نبوة، ومع ذلك سمع الرسول حديث عائشة، وعلق تعليقاً لا يزيد معناه عن محاولته لأن تشعر أنه كان معها في حديثها، وهو قوله: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع).

وبعد ذلك يبقى على الزوجة أن تسعى لإرضاء زوجها، وهذا السعي له سبيل أساسي هو طاعة الزوج وتحقيق رغباته . وسنعطي أمثلة لزوجات فهمت كل واحدة منهن كيف يكون الإحساس برغبة الزوج ورضاه، وكيف كان تحقيق رغبة الزوج عندهن أقوى من إحساسهن بأنفسهن وطبيعتهن، ولم يكن مجرد أداء واجب من الواجبات عليهن:
 - امرأة إبراهيم تقدر رغبة زوجها الطبيعية في أن ينجب ولداً، فتزوجه هاجر متنازلة عن رغبتها كزوجة في أن يكون زوجها لها وحدها، وحتى عندما رزق إبراهيم واشتعلت

(١) شرح هذا الحديث ملحق بآخر الكتاب .

- الغيرة في نفسها لم تطلب من إبراهيم تركها، بل طلبت التوفيق بين ضرورة تحقيق رغبة الزوج، وبين معالجة الغيرة فطلبت منه أن يبعد هاجر وابنها عنها .
- وسودة بنت زمعة زوجة النبي ﷺ تتنازل بحقها وليلتها لعائشة لما رأت رسول الله ﷺ يحُبها.
- وهذه أم سليم تكبت في نفسها حزنها على ابنها عندما مات، وتُهيئ نفسها لزوجها فيقضي حاجته منها في ليلة طيبة ولا تخبره بوفاة ابنها إلا في الصباح.
- فكانت رغبة إبراهيم في الأولاد عند سارة أقوى من رغبة سارة كزوجة في الانفراد به كزوج. وكانت رغبة الرسول ﷺ عند سودة بنت زمعة أقوى من حقها في ليلتها، ورغبة زوج أم سليم عندها أقوى من الأمومة والحزن على الولد.

أدب النوم واليقظة

- وإذا كان من المعروف أن السنة أن تقول الزوجة لزوجها قبل نومها هل لك بي حاجة، فيجب أن يكون من المعروف أيضاً معنى أن تكون الزوجة نائمة.
- وبيان هذا المعنى هو أن استئذان الزوجة في النوم إنما هو مسئولية الزوج عن هذا النوم، لأنها نامت بإذنه فلا بد أن يوفي حق هذا الاستئذان، ومن هذا المعنى أيضاً أن استيفاء حق استئذانها يتضمن حقيقة كرامتها عند زوجها، فالزوجة عندما تنام تشعر بكرامة نفسية ضخمة إذا حرص زوجها على حالة نومها، وليس أدل على أن مراعاة النوم تكريم للنائم من حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار^(١).
- وقد وضح من الحديث كيف يكون إعتبار وتقدير حال النوم.
- وحقيقة تكريم الزوجة - بمراعاة نومها - الواردة في حديث استئذان الزوجين عند النوم، وحديث الغار الوارد في نوم الأبوين، ليس هما النصوص الشرعية الوحيدة المثبتة لهذه الحقيقة ...

(١) كما جاء في الصحيح عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ينطلق ثلاثة نفر من مكان قبلكم حتى أوامهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فإتحدر صخره من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبُق قبلهم أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبُق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثتُ والقدر علي يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي - فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت الصخرة شيئاً الحديث .

ولكن المسألة متفق عليها بين أعظم رسولين .. جبريل رسول الوحي عليه السلام ..
ومحمد رسول العالمين عليه الصلاة والسلام.

قالت عائشة: ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ، قلنا بلى . قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجله وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويداً فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقمعت إزاري ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت فأسرعت فأسرعت فهرولت فهرولت فأحضر فأحضرت فسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال مالك يا عائش حشيا رابية قالت قلت لا شيء قال لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير قالت قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته قال فأنت السواد الذي رأيت أمامي قلت نعم فلهديني في صدري لهداة أوجعتني ثم قال أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله قالت مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم قال فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبتة فأخفيتك منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت قلت كيف أقول لهم يا رسول الله قال قلوا السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون^(١).

و لعلنا نلاحظ من الحديث كيف أن رسول الله ﷺ كان يتصرف رويداً، وكيف أن جبريل ينادي رسول الله دون أن يسمع عائشة، وهذا معنى فناداني فأخفاه منك . وكيف أجاب رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب، فأجبتة فأخفيتك منك . وإذا كان الاستئذان في الفراش من أجل قضاء حاجة الزوج من زوجته فإن من أجل صور الاستئذان خارج الفراش هو أن تنتظره - فلا تنام - قدر استطاعتها - حتى يجيء إلى البيت - فيجدها في انتظاره . ولكي يكون النوم زمناً جميلاً في العلاقة الزوجية، فإن كلمة طيبة قبل النوم تعطي للنوم حلاوة - يجدها الزوجان معهما حتى الاستيقاظ.

(١) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٢٥٤ - ٢٥٥/٩)، ومسلم رقم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

لأن الإنسان يستيقظ على ما نام عليه.
فيمسي الزوجان ويصبحان يحلقان في جو السعادة كالطير، ولكن الطير لا ينسى التسبيح.

فلا يبقى بعد هذه الكلمة الطيبة - التي تعطي للنوم حلاوة - إلا الأذكار التي تعطي صاحبها حفظاً في الدنيا وجنة في الآخرة.

وفي المقابل فإن هذه المعاني الجميلة هي التي تفسر أثر الهجر في المضجع، ليكون المعنى حينئذ هو عدم الإحساس بالوجود الذي كانت أجمل لحظاته هي المضجع .
فالاضطجاع هو حالة ما قبل النوم بكل ما فيها من سنن وأحكام، وبكل ما فيها أيضاً من مودة ورحمة، وبكل ما فيها كذلك من راحة ومتعة .

وبالعودة إلى آداب النوم واليقظة، فإن كل ما سبق لا ينطبق على حالتين للزوجات:
الزوجة التي تزوجت لتنام، ولا يراها زوجها في يقظة إلا نادراً حتى تجعله عندما يراها مستيقظة يظن أنها رؤية مناميه .

و الزوجة التي تزوجت لتجعل زوجها لا ينام، التي تحمل عليه بدلاً من أن تحمل عنه، وتجمع له الهم بدلاً من أن ترفع عنه.

فيجب أن يكون نوم الزوجة في بيت زوجها قدر حاجتها حتى لا تنام إلا وقد غلبها النوم على اليقظة .

ولذلك تقول إحدى المقربات لعائشة رضي الله عنها في وصفها في بيتها: هي جارية تنام على العجين.

أي يغلبها النوم بعد التعب من العجين حتى لا تتمكن من تغطيته من شدة الإرهاق، وهكذا يكون طعم نوم الزوجات، ولا يكون هذا إلا بعد إرهاق الواجبات.

ونواصل تحديد أسباب الحماية الأساسية للبيت من خلال النصوص مباشرة في صورة توجيهات محددة لتستقر في الأذهان ويسهل التطبيق:

(١)

قال رسول الله ﷺ: (استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلِقن من ضلع أعوج وإن أعوج الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وكسر المرأة طلاقها) ^(١)، في هذا الحديث الوصية بمراعاة الاعوجاج في خلق النساء حتى لا يكون الاصطدام في التعامل والمعاشرة، ومراعاة الاعوجاج يجب أن يكون بحدود، حتى لا يكون النشوز أو المعصية نتيجة هذه المراعاة، وأهم هذه الحدود ألا مراعاة في معصية شرعية، لأن الشريعة بذاتها هي التي تحقق تلك المراعاة، ولا يبقى غير الالتزام الكامل بأحكامها، ولا مراعاة في معصية الزوج، لأن الأمر بطاعة الزوج من أحكام تلك الشريعة ومن الأفضل أن نذكر مثلاً لهذه المراعاة المقصودة: كان النبي ﷺ في حجرة السيدة عائشة فبعثت السيدة زينب بإناء فيه بعض التمر ليأكله النبي فغارت عائشة، وغضبت، وأخذت الإناء وألقته على الأرض أمام النبي ﷺ فماذا كان من النبي ﷺ؟ ضحك لغيره عائشة وهذه كانت المراعاة لطبيعة الزوجة، ولكنه أمرها أن تجمع التمر وتغسله وتأتي بإناء من عندها لتعطيه لزينب بدلاً من الذي كسرته فلم تتماذى عائشة في غضبها، بل أطاعت النبي ﷺ فيما أمر به، فجمعت التمر وغسلته وأعطت الخادم إناءً بدل الذي كسرته ^(٢)، ولم تتجاوز بغضبها حدود الالتزام بالحق .

ولأجل الاعوجاج الطبيعي في خلقه المرأة فإن النبي ﷺ - يحدث حديثاً يهيئ إحساسنا بالمرأة، بحيث نرى فيها المحاسن واضحة، ويصغر في نظرنا السيئ منها، فيقول رسول الله ﷺ: (لا يفرك (يبغض) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي آخر) ^(٣) .

والحديث يذكر الزوجة بصفة الإيمان لكي يقوي إحساسنا بإيمانها على إحسانها باعوجاجها، وتلك هي روعة المعالجة، ثم يعلمنا النبي ﷺ دعاءً بأن يحقق الله لنا خير

(١) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٩/٢٥٣)، ومسلم رقم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري في (الأنبياء) (٣١٢ - ٦/٣١٣)، ومسلم رقم (١٧٩٥) ن من حديث عائشة - رضي الله عنها -، ولذا بين رسول الله ﷺ أنه: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله) .

روي في (النكاح) (٩/٣٢٠) عن أنس وسمي النسائي في روايته (٧/٧٠) التي أرسلت الإناء أم سلمة وفي رواية أخرى (٧/٧١) إنها . صفة رضي الله عنهن .

(٣) أخرجه مسلم في (١٤٦٩) من حديث أبي هريرة . رضي الله عنه .

المرأة، يقول فيه: (إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليأخذ بناصيتها وليسمَّ الله - عز وجل - وليدعُ بالبركة: اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه)^(١).

(٢)

قال رسول الله ﷺ: (لا يؤم الرجل الرجل في بيته إلا من بعد إذنه، ولا يجلس على تكرمته إلا من بعد إذنه)^(٢)، لأن الإمامة شكل من أشكال القيادة التي لا يجب أن يمارسها غير الزوج في بيته وسلطانه إلا بالإذن الذي يؤكد للزوج هذه السلطة وتلك القيادة إذا مارسها أحد غيره .

ولا يمكن تحقيق مضمون هذا الحكم في أي عمل يؤثر في نظرة الزوجة إلى زوجها غير الصلاة، مثل المناقشات الفكرية التي تحب الزوجة كذلك أن يكون لزوجها فيها وضع الريادة، وبالموازنة بين حق العم الذي يقتضي الدفاع عن الحق بصرف النظر عن الرجال وحق الزوجة في شعورها تجاه زوجها يصير من الأولى إبعاد النساء عن واقع الاحتكاكات الفكرية بين الرجال .

ومن الأحاديث التي تؤكد سلطان الرجل في بيته على زوجته قول الرسول ﷺ: (لا يسأل الرجل فيم ضرب زوجته)^(٣)، لأن هذا السؤال تدخل مرفوض في قوامة الزوج على زوجته . ومن صور التدخل في سلطان الرجل أن يؤذن لأحد في بيته وهو كاره له، ولهذا جعل رسول الله ﷺ عدم الإذن لمن يكره الزوج من جوهر حقوق الزوج على الزوجة، إذ يقول: (فأما حقكم على نساءكم فلا يوطئن فراشكم من تكرهون، ولا يؤذن في بيوتكم لمن تكرهون)^(٤) . وفي رواية البخاري: (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)^(٥).

(١) أخرجه أبو داود في (النكاح) لا (٦/١٩٦)، والحاكم (٢/١٨٦-١٨٥) والنسائي في اليوم والليلة (٢٤٠)، و (٢٦٣) وابن ماجه (١٩١٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وسنده حسن .

(٢) أخرجه الترمذي في (الإمامة) (٢٧٧٢)، عن أبي مسعود الأنصاري، وقال حسن صحيح وهو كما قال، وأخرجه أحمد (٤/١١٨) وابن ماجه (٩٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٦/١٨٥)، والنسائي في العشرة رقم (٢٨٦) وابن ماجه (١٩٨٦)، وأحمد (١/٢٠) من طريق داود بن عبد الله الأودي عن عبد الرحمن المسلي .

(٤) أخرجه الترمذي، (٣٠٨٧)، وابن ماجه رقم (١٨٥١) في النكاح عن عمرو بن الأحوص وسنده صحيح .

(٥) أخرجه البخاري في (النكاح) (٩/٢٩٣) عن أبي هريرة .

(٣)

قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل بيتك إلا مؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقي)^(١)، فيحذر رسول الله ﷺ من أن يدخل بين الإنسان إلا مؤمن، لأن المؤمن هو الذي سيقدر حرمة البيت، وسيكون شريف الجلسة، وسيلتزم بأداب الضيافة، أما الأكل فيجب أن يكون فيه أشد الحرص، لأن معني أن يأكل رجل من طعام الزوجة وهو غير تقي، فإن هذا الإطعام سيكون خطيراً، لأن المؤكلة تقرب بين النفوس بالطبيعة الإنسانية، فلا بد أن تكون هنا التقوى التي تجعل هذا التقارب النفسي طاهراً نقياً . ولهذا ربط الرسول بين ضرورة الإيمان ودخول البيت، أما الطعام فقد ربطه بضرورة التقوى .

(٤)

قال رسول الله ﷺ: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها)^(٢). ومن أحكام الحديث النهي عن وصف المرأة امرأة أجنبية لزوجها، والنهي عن وصف الرجل الرجل الأجنبي لزوجته كأنها تراه .

فقد يكون الإنسان حريصاً على حماية بيته من الغرباء، ولكنه لا يحميه من نفسه، فيصف الرجل الرجل لزوجته كأنها تراه، على الرغم من أن الوصف لا يقل خطراً عن إدخال رجل غريب في حياة الزوجة، إذ إن الوصف له أثر الرؤية في كيان الإنسان باعتبار طبيعة التخيل، بل إن الوصف يزيد خطراً عن الرؤية بتحقيق الشوق إلى رؤية الموصوف، وعندما يكون الوصف من الزوج نفسه تشعر المرأة بأن لها حق الاستماع لصفات الرجل الذي يصفه زوجها والاهتمام بأمره والسؤال عنه باعتبار أن المتحدث هو الزوج .

كما أن المرأة تملك قدرة على المقارنة بين زوجها والرجل الموصوف، وتنتهي تلك المقارنة في إحساس الزوجة غالباً لصالح الرجل الغريب، وكل هذا يحدث أيضاً إذا وصفت المرأة المرأة لزوجها كأنه يراها .

(١) أخرجه الطبراني في الأمر الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: (لا تدخل بيتك إلا تقياً، ولا قول معروفك إلا مؤمناً)، مجمع (٨/ ١٨٣) قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم و الشطر الآخر من الحديث: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨)، وأبو داود (١٧٩/ ١٣) و الترمذي (٢٣٩٥)، وغيرهم من حديث أبي سعيد وسنده صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في (النكاح) (٩/ ٣٣٨) من حديث ابن مسعود مرفوعاً: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) وهو عند أبي داود (٦/ ١٨٧) و الترمذي رقم (٢٧٩٠) .

(٥)

قال رسول الله ﷺ: (إياكم والدخول على النساء) ^(١) فقال رجل: أفرأيت الحمو؟ فقال: الحمو الموت، ففي هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ مشكلة مهمة، وهي دخول الرجل من غير المحارم على المرأة في غيبة الزوج، وهذا الحديث يحدد القضية بأسلوب خطير، فهو يتكلم عن الحمو وهو أخو الزوج الذي يعتبر أقرب الناس إلى الزوج، ولكنه يقول (الحمو الموت) أي الهلاك والخراب .

والواقع أن عدم دخول أحد - من غير المحارم - على الزوجة في غيبة الزوج هو الضمان الأول لحماية الأعراض، ولهذا يقول الرسول ﷺ في دفاعه عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - عندما اتهمها المنافقون بالإفك: (يا معشر المسلمين! من يعذرني في رجل بلغني أذاه أهلي، فو الله ما علمت في أهلي إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي) ^(٢) .

(٦)

قال رسول الله ﷺ: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها) ^(٣) .

في هذا الحديث يشير رسول الله ﷺ إلى سبب من أسباب الخطر الذي قل أن تتحقق منه النجاة، وهو محاولة امرأة غريبة أن تأخذ زوجاً من زوجته، ولذا يجب أن تكون الزوجة حريصة على ألا تدخل في حياة زوجها أي امرأة أخرى، لكي لا تسعي هذه الأخرى إلى الاستحواذ عليه وتحاول التأثير فيه، والغيرة غير كافية لتحقيق هذا الأمر، لأن المرأة قد تغير على زوجها، ولكنها قد تكون غبية لا تفهم، أو غافلة لا تدرك، والنساء على قدر كبير من المهارة في هذه النواحي، فأسهل ما يكون .. أن تغلب امرأة زوجة على زوجها، ولم يكن الأمر إلى الزوجة لأن الأقوى هنا هو المرأة الغريبة، باعتبار أن العلاقة الزوجية واستمرارها قد يبذل إحساس الزوج نحو زوجته، ولكن احساساته لن تكون بليدة مع الغريبة، ولهذا يقول الرسول ﷺ: (لا تطلب المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها)، لأن المرأة الغريبة هي مصدر الخطر فعلاً .

(١) متفق عليه: البخاري في (النكاح) (٩/٣٣٠) ومسلم فيه أيضاً رقم (٢١٧٢) من حديث عقبة ابن عامر .

(٢) البخاري (٥/٦٩٢) وفي التفسير، ومسلم أيضاً (٢٧٧٠) .

(٣) متفق عليه: البخاري (٤/ ٣٥٣) ومسلم رقم (١٥١٥) بعض حديث أبي هريرة .

(٧)

قال رسول الله ﷺ: (لا خير في جمع النساء إلا للصلاة أو قتيل)، لأن الصلاة لا يجوز معها الكلام، ولأن القتل أمر يؤكد فيه الفجيرة المانعة من الكلام، إذ قد يكون ميتاً مسناً، لا فجيرة في موته، فتستغل النساء جمعهن في الكلام .
ولأن النساء يتأثرن بأخلاق بعضهن البعض كان التحذير من جمعهن بصفة دائمة، وليس أدل على هذا التأثير من قول عمر^(١): (كنا نغلب نساءنا، فلما جئنا إلى المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم)، يقصد أن نساء المهاجرين تأثرن بنساء الأنصار في غلبة الرجال، وكانت تلك شكوى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

(٨)

قال رسول الله ﷺ: (إذا دخلت بيتك فأغلق بابك، وأكفئ إناءك، وأطفئ سراجك، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً)^(٢)، ولقد وضع في الحديث أن فائدة إغلاق الباب هي عدم دخول الشيطان، ويضاف إلى هذا الحديث قول الرسول ﷺ في حديث آخر:
(إن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)^(٣)، وبذلك يصبح البيت في حرز من الشيطان مع قولك بسم الله عند الدخول وعند الأكل، كما ورد في حديث: (إذا دخلت بيتك)، وأما إكفاء الإناء فقد جاء سببه في حديث آخر، ونصه: (أن مرضاً ينزل من السماء كل عام فيصيب كل إناء مكشوف)^(٤)، وحكمة إطفاء السراج جاءت في رواية أخرى: (حتى لا تأتي الفأرة فتجر النار وتحرق البيت)^(٥)، ولقد أوضحت هذه الوصايا الاهتمام البالغ من الرسول ﷺ بأسباب حماية البيت .

(١) هو قطعة من حديث (الإيلاء) الذي أخرجه البخاري ومسلم وسبق تخريجه عند قول عمر لابنته: لا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم منك عند رسول الله ﷺ .

(٢) متفق عليه: البخاري (٦/٣٣٦) ومسلم ن (٢٠١٢) عن جابر .

(٣) أخرجه مسلم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة .

(٤) أخرجه مسلم في (الأشربة) (٢٠١٤)، عن جابر رضي الله عنه .

(٥) عند البخاري (١١/٨٥) عن جابر أيضاً .

(٩)

خطر الأضرار والأحداث العارضة، وفيه:

قال رسول الله ﷺ: (إذا قال العبد: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) (ثلاث مرات) (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) (ثلاث مرات) فإنه لا يضره شيء^(١)، وذلك كل صباح وكل مساء .

وقد ورد في هذا الحديث^(٢) أن رجلاً صحابياً قيل له أدرك بيتك فقد احترق، فقال: لا، ما ينبغي له أن يحترق وقد قلت ... وذكر الدعاء، ثم قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: من يقولهن - يعني هذه الكلمات - لا يضره شيء في يومه) .

وفي النهاية نقول إنه على الرغم من الأخذ بكل أسباب الحماية للبيت والزوجة تبقي في نفس الزوج رغبة في المزيد من الإحساس بالأمان على زوجته وعرضه، ولكن هذا الإحساس لا يمكن أن يكتمل عند الزوج إلا من خلال استقرار عدة حقائق في ضميره وأهمها:

أن العفاف قدرٌ إلهي يتحقق في الزوجة بعلم الله لها، وعدله فيها، والدليل في قصة هجرة سيدنا إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر - التي مر ذكرها^(٣)، فقد كان الملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، فإن كان معها أخوها تركه، وإن كان معها زوجها قتله، فعلم هذا الملك بقدوم إبراهيم وسارة، فطلبها، فكان موقف إبراهيم أن قال لها: أخبريه أنني أخوك، وهذا بالطبع فيه نجاة لإبراهيم . ولكن أين التفكير في نجاة الزوجة ؟، هذا ما تركه

(١) حديث أبان بن عثمان عن أبيه . من قال حين يصبح: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه الحديث) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم (٣٣٨٨) وابن ماجه رقم (٣٨٦٩) ! قال الترمذي حسن صحيح غريب، وهو صحيح كما قال . وقد ورد حديث آخر، حديث أبي هريرة قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ: (أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك) أخرجه مسلم - واللفظ له رقم (٢٧٠٩)، وليس فيه ذكر: (ثلاث مرات)، إنما ذكرها الترمذي (١٠/٦٦) تحفة، وطرفه: (من قال حين يمسى ثلاث مرات أعوذ.. الحديث). (٢) والمقصود هو قصة أبي الدرداء التي أخرجها ابن السني في (عمل اليوم والليلة) رقم (٥٦) ومن طريق الأغلب بن تميم عن الحجاج بن القرافصة عن طلق بن حبيب قال: (جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء فقال: يا أبا الدرداء، قد احترق بيتك . قال: ما احترق، لم يكن الله - عز وجل - ليفعل ذلك لكلمات سمعتن من رسول الله ﷺ من قالهن أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالهن آخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح .

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أعلم أن الله علي كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً .

اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها إن ربي علي صراط مستقيم).
وزاد في رواية أخرى عند ابن السني أيضاً (٥٧). (وقد قتلها اليوم انهمضوا بنا، فقاموا معه فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها، ولم يصبه شيء .

(٣) سبق تخريجها في أوائل الكتاب .

إبراهيم للزوجة نفسها، فوقفت أمام هذا الملك الما جن تدعوا الله: (اللهم إن كنت تعلم أنني قد أحصنت فرجي إلا على زوجي، فأبعد عني هذا الشيطان)، فخسف الله به الأرض واستجاب لها، ومن الدعاء والاستجابة يتبين كيف أن العفاف قدر تحقق لزوجة إبراهيم بأسباب من عندها، وهي إحصان فرجها إلا على زوجها، ولما كانت كذلك كتب الله لها النجاة والعفاف وتأكدت بذلك مسئولية المرأة الحقيقية عن نفسها وعفافها.

(ونذكر بقصة المرأة - سابقة الذكر - التي احتاجت وأنجاها الله^(١)، كما أن عبودية المرأة وخشيتها لله هي الحماية الأصلية لها من الانحراف، فإذا أحست الزوجة أنها قبل أن تكون زوجة لرجل فهي أمة لله، وانحرافها قبل أن يكون خيانة للزوج فهو كبيرة عند الله، كما قال الرسول ﷺ: (والله أغير منا)^(٢)، وقال: (وما أحد أغير من الله ومن أجل ذلك أنزل الحدود)^(٣)، وهذا قيمته أن تشعر المرأة بغيرة الله عليها، ونذكر هنا بقول المرأة التي سمعها عمر تقول:

(فوالله لولا الله أنني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه)^(٤).

وليس قدر العفاف هو قدر النجاة من الانحراف فقط، ولكنه أيضاً قدر النجاة من الاتهام بالانحراف . وهو قدر البراءة الذي يحقق النجاة أمام الناس بعد قدر العفاف الذي يحقق النجاة أمام الله .

وعندما نذكر الدليل على قدر البراءة فبالطبع ستكون قصة مريم ابنة عمران التي أنطق الله من أجل براءتها عيسى وهو في المهد، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم ٣٠ - ٣٣).

(١) قصة الثلاثة الذين دخلوا الكهف وتوسلوا بأعمالهم الصالحة سبق تخريجها .

(٢) البخاري في (النكاح) (٩/٣١٩) ومسلم رقم (١٤٩٩)، من حديث سعد بن عباد .

(٣) البخاري في (النكاح) (٩/٣١٩) من حديث ابن مسعود، ومسلم من حديث عباد (١٤٩٩) .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٩/٢٩) من طريق مالك عن ابن دينار عن ابن عمر خرج عمر من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودت جوانبه وأرقتني أن لا حبيب أأعبه

فقال لخصصة كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أو أربعة أشهر، فقال عمر: (لا أحبس الجيش أكثر من هذا).

وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة بقرة (٢٢٧)، (١/٤٤٧).

وعزاه للموطأ وزاد: فوالله لولا أنني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

وسند الموطأ جيد قوي .

ولقد رأينا في قصة جريج كيف أن الغلام نطق في المهد أيضاً عندما ضربه جريج على صدره وقال: من أبوك ؟ قال: أنا ابن الراعي ^(١) .

ومن هنا كان النبي ﷺ واثقاً بأن الله سيبرئ عائشة.

فقال لها: (يا عائشة، إن كنت بريئة فسيبرئك الله) ^(٢) .

وكما أن قدر العفاف له أسباب فإن قدر البراءة له أسباب أيضاً.

وأهمها: البعد بالنفس عن الشبهات .

و الدليل هو تصرف النبي ﷺ عندما كان يسير مع زوجته صفية بالليل فرآه اثنان من الصحابة، فقال لهما: (على رسلكما، إنها صفية زوجتي . فقالوا: سبحان الله ! يا رسول الله ! . قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم ومجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئاً) ^(٣) .

وبهذا التصور يجب أن نكل أمر الزوجة إلى الله، سواء من ناحية نجاتها من الانحراف الفعلي، أو نجاتها من الاتهام بالانحراف أمام الناس .

وأن نتوكل على الله مع الأخذ بأسباب الحماية، إذ إن صون العرض في الواقع أكبر من مجرد الأخذ بأي سبب، ومن الخطأ الاعتماد في هذا على أي سبب دون التوكل على الله، فإن ظن الإنسان أن حب زوجته له يحميها من الانحراف فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإن ظن في نفسه الجمال أو الغني أو القوة فهناك من هو أجمل منه وأغنى منه وأقوى منه . ومن هذا تأتي ضرورة التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب صلاحاً للبال وراحة للضمير .

وهذا نبينا - عليه الصلاة والسلام - يقول: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل) ^(٤) . وبذلك يستخلف النبي ﷺ الله في أهله، وهكذا يجب أن نفعل .

(١) قصة جريج سبق تخريجها، وأنها في صحيح مسلم انظر (ص: ١٠، ١١) .

(٢) سبق تخريجه قصة الإفك (ص: ٧٩، ٨٥) أنظرها هناك .

(٣) متفق عليه: البخاري في (الاعتكاف) (٤/٢٧٨)، رقم (٢١٧٥) من حديث صفية .

(٤) سبق تخريجه - قريباً - وهو صحيح .

خطر البيت

وبعد تكوين البيت وحمايته بقي أمر أخير وهو أن نحمي أنفسنا من أخطار البيت، وليس البيت خطراً إلا على الدعاة، ولهذا كان لابد أن يكون ارتباط الداعية ببيتها بأصول تحميه من الرضا بمسكنه ومعيشته دون الجهاد في سبيل الله، فيقع في التحذير الذي جاء في قول الله:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)، وكذلك التحذير من عداة الزوجة، ونصه قول الله في سورة التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤)، ومعنى عداة الزوجة والأولاد أن يكونوا سبباً في ركون الإنسان إليهم والقعود عن الجهاد. كما أن هناك تحذيراً تنبه فيه النبي ﷺ إلى محاولة الشيطان في التصاق الإنسان ببيته وربطه بأهله، والحديث يقول: (إذا خرج الإنسان للجهاد جلس له الشيطان على قارعة الطريق يقول له: تُنكح الزوجة، فيمضي فيقول له: يُنمِّم الولد، فيمضي، فيقول له: يقسم المال، فيمضي)^(١).

ولهذا فإن القرآن يعتبر أن الذي يخرج من بيته يكون قد أتم معنى الخروج في سبيل الله، ولو لم يحقق هدف الخروج بدليل قول الله عن الهجرة: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠). وكذلك فإن القدرة على الخروج من البيت تعادل تماماً القدرة على التضحية بالنفس، بدليل قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦)، ومن أجل ذلك فإن القرآن

(١) حسن: أخرجه النسائي في (الجهاد) (٦/٢١، ٢٢) أحمد (٣/٤٨٣) وابن حبان (٧/٥٧) من حديث سيرة بن أبي فاكه، وطرقه: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، قعد في طريق الإسلام).

يعالج الإحساس بالجبن عند الإنسان بمعالجة إحساسه ببيته على أنه ليس هو الشيء الذي سيحمله من الموت أو القتل: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (عمران: ١٥٤) .

ولهذا كان لابد من تحديد الأصول التي يعيش بها الداعية في مسكنه، ويتعامل بها مع زوجته دون أن ينسي آخرته ودعوته . وأول هذه الأصول هي ممارسة إرادة الخروج في سبيل الله، ولو في أيسر الصور والمهام مثلما كان يفعل الرسول ﷺ عند خروجه إلى الصلاة كما تقول عائشة:

(كان رسول الله في خدمة أهله فإذا سمع المؤذن قام كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) ^(١)، هذا إذا كان مستيقظاً أما إذا كان نائماً (قام وكأنه في فزع) .

وهذا السلوك هو الذي يحقق إرادة الخروج، لأن التأخير ولو لحظة عن الخروج عند الضرورة هو الذي يسبب القعود، وهذا موقف وضحت فيه آثار التأخير عن الخروج، وهو موقف كعب ابن مالك، حيث لم يكن ينقصه نية الخروج ولا إمكانياته، لكنه وهو واثق بإمكانية اللحاق بالجيش لم يتمكن من ذلك وكان من المخلفين، وعندما سأل رسول الله ﷺ عنه في الميدان كان رد أحد الصحابة يوضح كيف كان الانتباه إلى هذا الأمر، وكيف كانت دقة التصور عنه، إذ قال: (يا رسول الله، شغله برديه، والنظر في عطفه) ^(٢)، فإن نظرة من الإنسان إلى حياته بإعجاب أو لحظه أمل في الدنيا من الممكن أن تسبب قعوده، ولذلك كان الأمر بأن يعتزل كعب امرأته تربية له، إما الصاحبيان اللذان تخلفا مع كعب طلباً من رسول الله بقاء زوجاتهما في البيت لخدمتهما فأذن لهما دون معاشرتهن .

وهذا يعني أن مشاعر العلاقة الاجتماعية الكامنة في كيان الإنسان بطبعه الاجتماعي لابد أن تخضع لمقتضيات الدعوة.

فعندما كانت المقاطعة في قصة كعب أمراً واجباً كان توجيه تلك المشاعر نحو الزوجة أمراً ضرورياً كمقدمة للمقاطعة الكاملة.

ولكن عندما يكون قيام العلاقة الاجتماعية بين المسلم والمسلمين في الوضع الطبيعي أمراً واجباً - كضرورة للدعوة - يكون الحذر من التقصير في قيام تلك العلاقة الاجتماعية

(١) أخرجه البخاري في (النفقات) (٩/٥٠٧) دون الزيادة: (كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) .

(٢) قصة كعب أخرجه البخاري (٨/١١٣) في المغازي، ومسلم رقم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك نفسه .

الواجبة، وتوجيه تلك المشاعر نحو العلاقة الزوجية، لأن هذا ينشئ انفصلاً بين الفرد والجماعة ويسبب الركون إلى الزوجة.

وهذا موقف آخر يعطينا نموذجاً لإرادة الخروج والحذر من التأخر، وهو موقف (حنظلة بن أبي عامر) الذي يسمع نداء الجهاد (أَنْ يا خيل الله اركبي)، وهو يغتسل من الجنابة فلا يتم الاغتسال ويخرج وتتبعه من لحظة خروجه، فتراه يصل إلى قمة التضحية، حيث استشهد فقال النبي ﷺ: (لقد رأيت الملائكة تغسله) (١).

وتبرز حقيقة عظيمة من موقف حنظلة وهي أن تحقق قمة التضحية لن يكون إلا من منطلق التجرد الكامل.

أما في لحظات وجود الإنسان في بيته، فيجب أن يكون منشغلاً عقلاً ووجداناً بدعوته، وما حدث من عمر بن الخطاب يوضح هذه الضرورة، فقد كان لعمر بن الخطاب جار يتناوب معه النزول إلى المدينة والإتيان بأخبار الدعوة، حيث كان عمر يسكن أعالي المدينة مع هذا الجار فحدثت المفارقة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين نسائه، فجاء الرجل إلى عمر، وناداه من خلف الباب: أُنْ يا عمر لقد حدث شيء جلل، فقال عمر: أجاأت غسان؟ وغسان هذه كانت قبيلة متحالفة مع الروم ضد رسول الله - فقال الرجل: لا، فتشعر من توقع عمر مدى انشغاله بأمور الدعوة في لحظات وجوده ببيته (٢).

وهذه لحظات حزن وفزع يعيشها حنظلة عندما يظن أنه انشغل عن أخوته، وهو في بيته فيخرج باكياً فيراه أبو بكر، فيقول له: ما الذي يبكيك يا حنظلة؟ فيقول له: ناقد حنظلة . فقال أبو بكر: كيف؟ قال: نكون مع رسول الله نذكر الآخرة فإذا عدنا إلى بيوتنا لاعبنا أولادنا، فقال أبو بكر: والله أنا مثلك، وذهب الاثنان إلى رسول الله ﷺ يشتكيان ذلك.

ولهذا يجب أن يعايش المسلم أهله بحذر ويحدد إحساسه بزوجته على أنها متاع زائل، وأنه في حياته مع تلك الزوجة في الدنيا مجرد إعارة عندها من زوجته في الآخرة، ولذلك يقول الرسول ﷺ: (إذا أغضبت المرأة زوجها قالت زوجته في الجنة لا تغضبيه قاتلك الله إنما هو إعارة عندك).

ونحن لا ننكر أن للإنسان لهفة طبيعية إلى بيته وأهله، وهذا جابر بن عبد الله يخرج

(١) أخرجه الحاكم وصححه علي شرط مسلم .

(٢) هذا الجار هو: عتبان بن مالك كما جزم به القسطلاني، والقصة أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها في (العلم) (١/١٨٥).

في سبيل الله عريساً ويقا تل ويرجع مع المسلمين منتصراً، فيلاحظ رسول الله ﷺ جابراً وهو يسبق الجيش،

فيسأله عن ذلك، فيقول: يا رسول الله ! تزوجت، فإسراع جابر في عودته إلى البيت دليل على هذا الإحساس الفطري بحب العودة إلى الأهل والبيت، ولكن هذا الإحساس لم يتمثل عملياً إلا في الإسراع قليلاً في العودة ن ولم يكن مانعاً من الخروج في سبيل الله أصلاً.

وحتى لهفة العودة بعد الخروج في سبيل الله كان لها المعالجة النفسية التي تمنع خطرها، وهي سنة رسول الله ﷺ في الصلاة ركعتين بعد الرجوع من السفر وقبل الدخول في البيت، فهاتان الركعتان ترجعان بالمسلم إلى إحساسه الصحيح تجاه بيته وأهله حتى لا يصل إحساس اللهفة بالإنسان إلى إحساس الرضا بالمسكن الذي تحذر منه الآية.

وكذلك سنة دعاء العودة الذي يربط الإحساس بالرجوع إلى البيت والعبودية لله (آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون) . وعند هذا الحد يكون قد تلاشى الإحساس بالمسكن على أنه موضع الاستقرار الذي قد ينازع المسلم في تجرده وكفاحه.

ثم نأتي إلى أهم أسباب حماية البيت وأسباب الحماية من خطر البيت معاً، وهي تحقيق العبودية لله في حياة الزوجين .

حيث يجب أن يملأ معنى العبودية لله طبيعة العلاقة بين الزوج والزوجة، ومن هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) . حيث جاء في تفسيرها قول الرسول ﷺ: (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى أيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبي نضحت في وجهه الماء) .

وكذلك قوله - تعالى - : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥) . ورد في تفسيرها قول الرسول ﷺ: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلياً ركعتين كتباً من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» .

ولعلنا نلاحظ في بقية الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١) أن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي المقتضي الآخر للولاية

بعد العبودية، وهو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) .

غير أن هناك أسلوباً نهائياً يحقق التجرد المطلق للمسلم من دنياه، وهو أن يدخل البيت ذاته مجال الكفاح المسلح مباشرة، وتأخذ الأسرة مقعدها للقتال، وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ وصحابته عندما كانوا يأخذون زوجاتهم معهم في غزواتهم المتتالية، فما تكاد تنتهي غزوة حتى تبدأ الأخرى .

ويصور لنا القرآن الكريم مدى قرب البيت من ميدان الكفاح المسلح، فيقول -سبحانه وتعالى-:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٢١) .

فنرى رسول الله ﷺ يغدو من أهله فيبوي المؤمنين مقاعد القتال، فتشعر بمدى قرب البيت والأهل من الميدان ومواقع القتال.

وقبل الختام نبدأ زيارة بيت الدعوة :

هناك ... في واقع الدعوة وتحت ظلال السيوف .. بين بيوت البركة ومنازل الملائكة في سبيل الله .. بيت لامرأة من أصحاب اليمين هي الرميضاء امرأة أبي طلحة . وكنيتها «أم سليم» .

عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال الرسول ﷺ: (رأيتني دخلت الجنة ، فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبي طلحة) (١) .

فمن البداية طلبها أبو طلحة ليتزوجها - وهو مشرك - فاشتطت عليه الإسلام ويكون صداقها إسلامه فأسلم وتزوجته (٢) . وبذلك يتكون بيت بالإسلام والدعوة .

ويجيء ضيف إلى الرسول ﷺ ولم يكن في بيته طعام ، فسأل من يستضيف ضيف رسول الله؟ ، فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله ! ، فذهب بالضيف إلى بيته ، وسأل زوجته أم سليم عن الطعام ، فقالت: لا يوجد غير طعام الأولاد ! ، فوضعت أمام الضيف بعد أن جعلتهم ينامون ، وتصنعوا أنهم يأكلون دون أن يشعر الضيف ، حتى أكل طعام الأولاد وشبع . فذهب أبو طلحة إلى صلاة الصبح ، فاستقبله رسول الله ﷺ فقال له: (يا أبا طلحة ! لقد ضحك الله من صنيعكما الليلة) (٣) .

وأطعمت الرميضاء ضيف رسول الله ﷺ طعام الأولاد ، وأطعمتنا نحن معنى إطعام الضيف ، ففي المعنى: زاد للثقوى وطعم الإيمان وحلاوة اليقين ورائحة الجنة .

وببارك الله تعالى كرم الرميضاء ، فيطعم بطعامها جميع صحابة الرسول ﷺ إذ صنعت الرميضاء طعاماً لرسول الله ﷺ وبعثت ابنها أنس بن مالك يدعو الرسول ﷺ إلى الطعام فقال النبي للصحابة: لقد صنع لكم أبو طلحة طعاماً ، وذهب جميع الصحابة إلى بيت الرميضاء ، فقال أبو طلحة: ماذا نصنع؟ ، فقالت الرميضاء: رسول الله أعلم بما يفعل ، فأمر الرسول ﷺ الصحابة أن يدخل عشرة عشرة حتى أكلوا جميعاً وشبعوا ، ولم ينقص من طعام الرميضاء شيء (٤) .

(١) متفق عليه: البخاري في (التعبير) (١٢/٤١٥) ومسلم رقم (٢٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) البخاري في (العقيقة) (٩/٥٨٧) ومسلم رقم (٢١٤٤) عن أنس .

(٤) متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (٩/٥٧٤) ومسلم رقم (٢٠٤٠) من حديث أنس .

كما يأتي رسول الله ﷺ ليصلي في بيتها فلا يجد إلا حصيراً قديماً بلي، فيقول الراوي: (صلى بنا رسول الله ﷺ في بيت أم سليم على حصير قديم قد تغير من القدم، قال ونضحته بشيء من ماء فسجد عليه). رواه أحمد والنسائي وأبو داود.

وتقاتل الرميضاء بنفسها.. عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدماً سوقهما ينقلان القرب على متونهما ويفرغانها في أفواه القوم^(١).

وفي غزوة حنين: (عن أنس قال: اتخذت أم سليم خنجراً أيام حنين فرأها النبي ذات يوم والخنجر معها فقال: ما هذا يا أم سليم؟ فقالت: اتخذته حتى إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، فقالت: يا رسول الله!، أقتل من بعدنا من الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال لها: أم سليم!.. إن الله قد كفى وأحسن^(٢)).

ولنا أن نعلم عظمة موقف الرميضاء إذا علمنا أن الذي بقي مع رسول الله ﷺ كما ذكر صاحب فتح الباري^(٣) - في غزوة حنين نحو المائة وبضعة وثلاثين من المهاجرين والبقية من الأنصار، ومن النساء أم سليم وأم حارثة.

ويروي لنا أنس حادثة وفاة الغلام في بيت الرميضاء:

(عن أنس قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب، قال: ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع، وأصاب منها، قال: يا أبا طلحة! أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمعنوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب بما كان ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لكما في غابر ليلتكما، قال: فحملت وأنجبت بعد ذلك عشرة أولاد، كلهم يقرؤون القرآن^(٤)).

(٥) البخاري في المنقب والمغازي (٧/١٢٨، ٣٦١) ومسلم رقم (١٨١١) عن أنس رضي الله عنه.

(١) انفرد به مسلم فرواه في الجهاد رقم (١٨٠٩) من حديث أنس.

(٢) كتاب المغازي ص ٨ ص: ٢٨.

(٣) تقدم قريباً تخريجه.

ومع العشرة أولاد الذين يقرؤون القرآن، كان أنس بن مالك الذي وهبته أم سليم لخدمة النبي ﷺ، ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، وطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالخروج في الغزوات، ولكن رسول الله ﷺ لا يجيزه للقتال، ويبكي لحبه للجهاد، كان هو الراوي الذي رويت عنه أكثر أحاديث الجهاد، كما روى ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثاً.

ومع العشرة أولاد الذين يقرؤون القرآن، كان البراء بن مالك الذي انتصر المسلمون بدعوته في إحدى الغزوات، حيث كان النبي ﷺ ومعه الجيش بالسيوف مرفوعة والقوة معدة والأسباب مأخوذ بها وما وبين هذا والنصر إلا دعوة البراء، إذ قال له الرسول ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، ادع الله يا براء ينصرنا عليهم) (١).

وكانت تلك بعض معالم البيت ..

امرأة من أهل الجنة جعلت الإسلام صداق زواجها ..

وأطعمت الصحابة من طعامها ..

وقاتلت في سبيل الله بنفسها ..

وأضحكت الله بكرمها ..

وأنجبت عشرة أولاد كلهم يقرؤون القرآن.. غير الذي انتصرت الجيوش بدعوته ..

وأنس راوي أحاديث الجهاد عن النبي ﷺ وخادمه ..

كما روت عن النبي ﷺ أربعة عشر حديثاً، وأخرج لها منها في الصحيحين أربعة

أحاديث، أحدهما متفق عليه، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بحديث، وروى عنها أنس

بن مالك وعبد الله بن عباس وعمر بن عاصم الأنصاري وأبو سلمة وعبد الرحمن بن

عوف وزيد بن ثابت.

وقد كانت الصفة الأساسية لتصرفات الرميضاء: هي السهولة في تصور الأحداث

والممارسة المعيشية والحياة كلها ..

فعندما أرادت الزواج قالت لابنها: (قم فزوج أمك) (٢) ..

وعندما مات ابنها قالت لزوجها: (هدأت نفسه) ..

وكانت وليمتها التي أعدتها لزواج رسول الله ﷺ بقية من التمر ..

(٤) تقدم تخريجه وبيان ما فيه .

(١) تقدم غير مرة .

وكان طعامها لضييف رسول الله ﷺ طعام الأولاد ..
وكان فراش بيتها حصيراً قديماً نضحته بالماء، ليسجد عليه النبي ﷺ ..
وقد كانت هذه السهولة هي الأثر الاجتماعي الناشئ عن الشعور بمسئولية الدعوة في
حياة أصحابها.

وهذا هو بيت الدعوة ..
الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا .. مجتمعاً كاملاً .. وحياة دائمة.

ملحق (شرح حديث أم زرع)

ورد هذا الحديث في البخاري في كتاب النكاح في باب حسن المعاشرة مع الأهل ومسلم والنسائي والترمذي، وقد شرح هذا الحديث علماء كثيرون منهم القاضي عياض، وهو أجمعهم وأوسعهم.

وقد لخص الإمام العسقلاني جميع ما ذكره في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، وهذا ملخصه: كانت قرية من قرى اليمن فيها إحدى عشرة امرأة، فقلن: تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب، فتعهدن وتعاقدن على ذلك (وقد ذُكرن بأسمائهن في ملخص الإمام العسقلاني).

قالت الأولى: (زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعت) والغث يعني الهزيل يعني صعب المرتقى ومنه: وعناء السفر ومعنى العبارة: أن زوجها شديد، يصعب الرقي إليه (لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى) معنى العبارة: أنه لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً، لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وُجد بغير نصب ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة في صعود الجبل لأجل تحصيله.

والمعنى العام: أنها شبّهت زوجها بلحم جمل غث يعني قليل الخير، وشبّهت خلقه بالجبل الوعر، أي أن زوجها سيئ الخلق، يترفع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها، فيجمع البخل وقلة الخير مع سوء الخلق والكبر.

قالت الثانية: (زوجي لا أث خبره) يعني حديثه الذي لا خير فيه (إني أخاف أن لا أذره) يعني أخاف ألا أترك من خبره شيئاً إذا بدأت الحديث عنه فلا أستطيع من كثرة مساوئه، أو أخاف إن بدأت الحديث عنه أن يصله فيطلقني وأنا أخاف الطلاق. ولكن إن تكلمت سأذكر (عجره وبجره) والعجر أصلاً العروق الظاهرة في الجسم في مواضع مختلفة، أما العجر والبحر معاً فتعني العقد الظاهرة والخفية.

قالت الثالثة: (زوجي العشنق) والعشنق المذموم الطول من غير نفع، أو الطويل الذي يملك أمر نفسه ولا تحكم النساء فيه، بل يحكم فيهن بما شاء، فزوجته تهابه، إن تنطق بحضرته تطلق فهي تسكت على مضمض (إن أنطق أطلق أو أمسك اعلق).
يعني إن نطقت يطلقها، وإن سككت لا تُطلق، ولكن تبقى له في وضع المعلقة، وهو وضعها الدائم معه، فهي في كلتا الحالتين لا تنال حقوقها الزوجية منه، سواء طلقت أو بقيت معلقة.

قالت الرابعة: (زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سامة). تهامة بلاد حارة غالب الزمان، وليس فيها رياح باردة، فإذا كان الليل كان وهج الحر ساكناً، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى النهار، ومن هنا كان وصفها بليل تهامة، وأنه لا حر ولا قر، وأما قولها: (لا مخافة ولا سامة)، فلأن تهامة جبال، يتحصن بها أهلها فلا يخافون.

فوصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن، فكأنها قالت: لا أذى عنده ولا مكروه، وأنا آمنة معه فلا أخاف من شره، ولا ملل بيننا فيسأم أحدنا الآخر، فأنا لذيدة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليهم المعتدل، آمنه معه كأمان أهل تهامة بجالهم العالية.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد.

لأن الفهد يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم.

والأسد وصف بالجرأة والإقدام.

ولا يسأل عما عهد كرمأ منه.

وهو في داخل بيته سريع الحركة ونشيط مثل الفهد.

وهو خارج بيته رزين ثقيل مثل الأسد.

قالت السادسة: (زوجي إذا أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يولج

الكف ليعلم البث).

(إذا أكل لف) أي خلط أصناف الطعام من نهمة وشرهه، ثم لا يبقى منه شيئاً.

(وإذا شرب اشتف) أي يستقصي كل ما يشربه فلا يبقى منه شيء.

(وإن اضطجع التف) فجاء الذم من جهة الانفصال عنها في النوم، وهذا ما يفسره

الجزء الآتي:

(ولا يولج الكف ليعلم البث): أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله.
فجمعت في وصفها بين اللؤم والبخل والنهمة والمهانة وسوء العشرة.
قالت السابعة: (زوجي غيايأ أو عيايأ طباقأ كل داء له داء شجك أو فلك أو جمع كلا لك)، ومعني (غيايأ) مغط عليه من جهله، (والعيايأ) هو من يعيبه مباضة النساء، (طباقاء) الأحمق.

(كل داء له داء) . ومعناها كل عيب تفرق في الناس فهو فيه.

(شجك أو فلك أو جمع كلا لك) .

إذا ضربك إما أن يشج الرأس أو يكسر العظم أو يفعل الاثنين معاً.

وبذلك تكون وصفته بالحمق والتناهي في سوء العشرة، وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى فإذا حدثته سبهاً، وإذا مزحته شجهاً وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام.

قالت الثامنة: (زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب) والأرنب هو الحيوان المعروف لين المس ناعم الوبر جداً والزرنب: نبت طيب الريح مثل الزعفران كنت بذلك عن حسن خلقه ولين عريكته بأنه طيب العرق لكثرة نظافته واستعماله الطيب نظرفاً ويحتمل أن تكون قصدها بذلك طيب حديثه أو طيب الثناء عليه لجميل عشرته لها وصبره عليها بالشجاعة، وهو كما قيل: ويغلبن الكرام ويغلبن اللئام، قال القاضي عياض: هذا من التشبيه بغير أداة، وفيه حسن المناسبة والموازنة والتسجيع. وأما قولها: وأنا أغلبه، لظن أنه جبان ضعيف، فلما قالت: (والناس يغلب)، دل على أن غلبها إياه إنما هو من كرم سجايأه، فتمت بهذه الكلمة المبالغة في حسن أوصافه.

قالت التاسعة: (زوجي رفيع العماد، طويل النجاد عظيم الرماد، قريب البيت من الناد).

وصفته بطول البيت وعلوه، فإن بيوت الأشراف كذلك يعلنونها ويضربونها في المواضع المرتفعة ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً، وقيل كنت بذلك عن شرفه ورفعة قدره .

(طويل النجاد) هو حمالة السيف، تريد أنه طويل القامة يحتاج إلى طول نجادة وفي ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته .

وقولها (عظيم الرماد) تعني أن نار قراه للأضياف لا تطفأ لتتهدي الضيفان إليها.

ومحصل كلامهما أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة.
قالت العاشرة: (زوجي مالك وما مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك).
المبارك: موضع نزول الإبل.
المسارح: موضع رعي الإبل.
المزهر: الذي يوقد النار فيزهرها للضيف أو آلة اللهو كالدف الذي يضرب ترحيباً وبالضيف .

مالك وما مالك ؟ الاستفهام للتعظيم.
مالك خير من ذلك. زيادة في التعظيم.
له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح: لاستعداده للضيفان بها لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلاً ويترك سائرهن بفنائها، فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه به من لحومها وألبانها.
(إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك) يعني إذا سمعت الإبل صوت المزهر أيقن أن ضيفاً قد جاء وأنهن هوالك بسبب ذلك.
ومحصل كلامها أن زوجها ذو مال وكرم.
قالت الحادية عشرة: زوجي أبوزرع: فما أبوزرع ؟
(أناس من حلي أذني): حرك بحلي ثقيلة أي ملاً أذنيها بما جرت عادة النساء في التحلي من فرط وشنف من ذهب ولؤلؤ.
(وملاً من شحم عضدي): أي سمنت عنده وامتلات.
(وبجحني فبجحت إلى نفسي) فرحني وعظمني ففرحت وعظمت إلى نفسي.
(وجدني في أهل سهيل^(١) وأطييط^(٢)، ودانس^(٣) ومتق^(٤)): أي جعلني في أهل ثراء وخيل وإبل وأهل زرع ودجاج.
(فعنده أقول فلا أقبح): لكثرة إكرامه لها وتدلها عليه.

(١) صوت الخيل .

(٢) صوت الإبل .

(٣) الدانس هو الدارس الذي يدرس الزرع .

(٤) يزيل ما يخلط به من قشر ونحوه .

وأرقد فأتصبح: وهو نوم الصبحة إشارة غلي أن لها مَنْ يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها.

(وأشرب فأتقمح): أي حتى لا أحب الشرب من كثرة الشيء الذي يشرب.

(أم أبي زرع) والدة زوجها.

(عكومها رداح): أحمالها التي تجمع فيها الأمعة ممتلئة ثقيلة.

(وبيتها فساح): أي فسيح.. فوصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث واسعة البيت

كثيرة المال.

(ابن أبي زرع.. فما ابن أبي زرع؟! مضجعه كسل شطبه): ما شطب من الجريد، وهو سعفه فيشق منه قضبان رفاق ينسج منه الحصير.

(ويشبعه ذراع الجفرة): الجفرة ولد الماعز ابن أربعة أشهر، فوصفته بهيف القد ليس

ببطين، قليل الأكل والشرب، أي أن معيشته سهلة عليها.

(بنت أبي زرع.. فما بنت أبي زرع؟! طوع أبيها وطوع أمها): بارة بهما.

(وملء كسائها): للدلالة على كمال الشخصية ونعمة الجسم.

(وغيظ جارتها): أي أن جارتها تغير منها لجمالها.

(جارية أبي زرع.. فما جارية أبي زرع؟).

(لا تبث): لا تظهر حديثنا تبثيثاً.

(ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً): لا تسرع فيه بالخيانة ولا تنهبه بالسرقة أي الطعام.

(ولا تملأ بيتنا تعشيشاً): مُصلحة للبيت مهتمة بنظافته ولا تكفي بضم كُناسته

وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

(خرج ابو زرع والأوطاب تمخض): الأوطاب جمع وطب وهو وعاء اللبن وتمخض أي

يضع فيها وأرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان زمن الخصب وطيب الربيع توطئة للبائع

على رؤية أبي زرع للمرأة التي رآها عليها.

(فلقي امرأة ولدان لها كالفهدين).

(يلعبان من تحت خصرها برمانتين): أي من مخض اللبن تعبت فاستلقت تستريح

فرآها أبو زرع على ذلك . ورجح القاضي عياض تأويل الرمانتين بنهديها، فطلقني

ونكحها.

(فَنكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا): أَي مِنْ سُرَاةِ النَّاسِ وَهُمْ كِبَرَاؤُهُمْ فَيَسُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ.

(رَكِبَ شَرِيًّا): أَي رَكِبَ فَرَسًا عَرَبِيًّا أَصِيلًا، يَسْتَشِيرِي فِي سِيرِهِ أَي يَمْضِي لَا خُور.. (وَأَخَذَ خَطِّيًّا): الرَّمْحَ نَسَبَةً إِلَى مَصْدَرِهِ وَهُوَ مَكَانٌ بِالْبَحْرَيْنِ اسْمُهُ (الْخَطُّ) تَجَلَّبَ مِنْهُ أَفْضَلَ الرَّمَاكِ.

(وَأَرَاكِ عَلَيَّ نِعْمًا ثَرِيًّا): أَي غَزَا فَنَعَمْتُ وَأَتَيْتُ بِالنَّعَمِ الْكَثِيرَةِ. (وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا): أَي أَعْطَانِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يَذْبَحُ زَوْجًا أَوْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَرْعَى زَوْجًا.

وَقَالَ: (كُلِّي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكَ): وَالْحَاصِلُ أَنَّهَا وَصَفَتْهُ بِالسُّودِّدِ فِي حَيَاتِهِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ بِكَوْنِهِ أَبَاحَ لَهَا أَنْ تَأْكُلَ مَا شَاءَتْ مِنْ مَالِهِ وَتَهْدِيَ مِنْهُ مَا شَاءَتْ لِأَهْلِهَا مِبَالِغَةً فِي إِكْرَامِهَا.

(وَمَعَ ذَلِكَ قَالَتْ) كَ فُلُو جَمَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ أَنْيَةِ أَبِي زَرْعٍ: فَكَانَتْ أَحْوَالُهُ مُحْتَقِرَةً بِالنَّسَبَةِ لِأَبِي زَرْعٍ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا زَرْعٍ كَانَ أَوَّلَ أَزْوَاجِهَا فَسَكَنْتَ مُحِبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا.

(تَمْخُضُ): أَي يَضَعُ مِنْهَا الزَّبْدَ.

وَأَخْرَجُونَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

الفهرس

٣ المقدمة
٥ البداية
١٧ معنى التجرد
١٩ الزواج والدعوة
٢٦ التوافق بين البيت والدعوة
٤٤ الذرية
٥٦ حماية البيت
٧٧ خطر البيت
٨٦ ملحق شرح حديث أم زرع